العودة إلى قضايا المجر والتطورات السياسية الجديدة

آثر السلطان سليمان القانوني منح نفسه قسطًا من الراحة من غزواته عقب العـودة من غـزوة مولدوفا. فلقد تخطّـى عمره الأربعين عامًـا. ويبدو أن الأنباء السـارّة التـي وصلته بشـأن الغزوتين الكبريين اللتين نجح الأسـطول العثماني في تحقيق نجاحات باهرة فيهما، أثلجت صدره وأراحته، لا سـيما بعد أن حقّق نصرًا مؤزّرًا في مولدوفا. لكن الحرب مع جيش البندقية كانت لا تزال مستمرة حتـى ذلـك الحين. كمـا وقعت بعـض الحوادث علـى الحدود الغربيـة للدولة وفـي البُوسْـنَة. فلقد شـنّ حـكام البندقية هجمـات متتالية على تلـك المناطق، ممـا دفـع أمير البُوسْـنَة "خُسْـرَوْ بَكْ" إلى الاسـتيلاء على قلعـة "نين" الخاضعة لحكـم البنادقـة والواقعة غرب مدينة "زادار"، حتى إنـه تمكّن من إحباط هجوم شـنّه البنادقة على قلعة "نادين" بمسـاندة ١٠ آلاف جندي مشـاة وألفيّ فارس. لكن مدينة "كاسـتيلنوفا" الواقعة على الساحل الشمالي لخليج "كاتارو" والتابعة لإمـارة البُوسْـنَة، تعرّضـت بعدهـا بفترة لهجوم مـن "أندريا دوريـا" الذي أردل الثأر لهزيمته في "بريفيزا" عند موقـع "دالماسـيا". فما إن سـمـع "دوريا" بمغادرة بَرْبَـرُوسْ سـواحل اليونان، حتى وصل إلـى مدينة "كاسـتيلنوفا (*Kastelnova*)" وحاصرهـا بعد شـهر واحد من هزيمتـه في "بريفيزا". وأنزل جنوده إلى سـاحل المدينة، وأمطرها بوابل من القذائف المدفعية. فاستمات المدافعون عن المدينة فـي حمايتهـا، وأقدموا على بعض المحاولات للخروج من قلعة المدينة، إلا أن الغالبيـة العظمـى من قواتهم سـقطوا قتلـى في هذه المحـاولات، وقلّ عددهم، ممـا دفعهـم إلى الاستسـلام فـي النهاية. وقـام بعدها "دوريا" بتسـكين ٦ آلاف حارس في هذه المدينة. ولم يسـتطع حاكم البُوسْـنَة "بَالِي بَكْ" استرداد المدينة

رغم كل المساعي التي بذلها في هذا الصدد. فأوكل السلطان سليمان أمر استرداد المدينـة إلـى بَرْبَـرُوسْ. وعندمـا وصل بَرْبَـرُوسْ على رأس أسطول مكون من ١٥٠ سفينة إلى سواحل"كاستيلنوفا"، كان "خُسْـرَوْ بَاشَـا" قد وصل هو الآخر بقواتـه إلـى المدينـة. وحاصـر الجيـش العثمانـي قلعـة المدينة على مـدار ٢٠ يومًا، واستطاع فـي النهاية استردادها بعدما قصفها بالمدافـع، وفُتحت ثقوب في جدرانها، فانسـلّ عددٌ من الجنود العثمانيين إلى داخلها، وسهّلوا السيطرة عليها. (٢٥ ربيع الأول ٩٤٥هـ / ٢٤ آب/أغسطس ١٥٣٩م).

وكان يبـدو فـي تلك الأثنـاء أن هذه الصراعات بيـن العثمانيين والبندقيين ستنتهي بتوقيـع معاهدة بين الطرفين. فبينما كان العثمانيون في طريقهم لاسترداد "كاستيلنوفا" من أيدي البنادقة، كانوا هم قد تحرّكوا لإبرام اتفاقية وإعلان وقف إطـلاق النـار مـع الجانب العثمانـي. ذلـك لأن الاتفـاق المبرم بيـن البندقيين والإمبراطـور "كَارْل الخامـس" لـم يكن يصـب في مصلحتهم. هـذا إلى جانب أن جيوش البندقية تكبّدت خسائر فادحة جرّاء المعارك التي دخلتها بموجب هذا الاتفاق. وقد فقدوا من بين أيديهم عددًا كبيرًا من جزر بحر "إِيجَه"، كما صارت جزيـرة كِريـتٌ هي الأخـرى عُرضةً للضيـاع. وفي خضمّ هـذه الأحداث، اتخذ مجلـس البندقية قـرارًا بتوقيـع معاهدة مـع الدولة العثمانية. فأرسـلوا جاسوسًـا خِلسـةً إلى إسطنبول للوقوف على نوايا السلطان، وأركان الدولة العثمانية حول هـذه الاتفاقيـة، والاطلاع على آرائهم بشـأن توقيـع معاهدة مـع إدارة البندقية. وقـد عاد هذا الجاسـوس بأنباء إيجابيـة حول رغبة العثمانيين فـي إبرام معاهدة سـلام. وعليه، كلّف البنادقة "توماسـو كونتاريني (*Tomaso Contarini*)" رسميًّا بالتفاوض مع الدولة العثمانية. لكن السلطان سليمان لم يستقبل مبعوث البندقية بشـكل جيد. وقـد أبلغه الصدر الأعظم فـي ذلك الوقت "لطفي بَاشَـا" بإمكانية التوقيع على معاهدة صلح مع حكام البندقية، شـريطة حصول الدولة العثمانية علـى صلاحيـات واسـعة، وأوصاه بالعودة إلـى البندقية والقدوم إلى إسـطنبول في وقت لاحق لحضور حفل ختان أولياء العهد.

وأما البنادقة فتيقّنوا من أن إبرام معاهدة صلح مع السلطان العثماني هو السبيل الوحيد أمامهم لمواجهة القرارات التي اتخذها الإمبراطور "كَارْل الخامس" وملك فرنسا، وكذلك الوضع السياسي السائد في أوروبا. ولهذا عزموا على ترسيخ دعائم السلام مع الدولة العثمانية مهما كلفهم ذلك الأمر من تضحيات. وللسبب ذاته بعثوا "ألفيس لويجي بادورو (*Alvise/Luigi Badeoro*)" إلى البلاط العثماني عام ١٥٤٠م لاستكمال المفاوضات مع السلطان لإقرار السلام بين الطرفين، إذ منح مجلس شيوخ البندقية "بادورو" صلاحية تقديم عرض للسلطان لإعادة الأوضاع كما كانت عليه قبل بدء العداوة بين الجانبين. وأسندوا له مهمة تقديم ٣٠٠ ألف قطعة ذهبية إلى البلاط العثماني كتعويض عن مصاريف الأسفار التي قام بها الأسطول العثماني. إلا أن هذا الرسول لم يكن ليتخلّى عن القلعتين الواقعتين في مقاطعة "مورية"، أي قلعتي "مونيمفاسيا (*Monemvasia*)" و"نابليو (*Napoli*)". وعلى الرغم من ذلك، فإن مجلس شيوخ البندقية كان يميل لمنح هذا الرسول صلاحيات أكثر إذا استلزم الأمر، حتى إن المجلس أصدر تعليمات سرية له بأنه مخوّل بترك هاتين القلعتين ومغادرتهما إذا ما حالتا دون إبرام معاهدة السلام مع العثمانيين. ولقد أُفشيت هذه التعليمات من قِبل السفير الفرنسي "جولاوم باليسيه" (كجزءٍ من مؤامرة دبّرها بشكل مشترك كل من "أجوستينو أبونديتو (*Agostino Abbondino*)"، و"جيوفاني فالير (*Giovanni Valier*)"، وموفو ليون (*Moffuo Lion*)"، و"ألمورو دولفين (*Almoro Dolfin*)") كُتّاب السفارة. ولقد أوصل هذه المعلومات التي حصل عليها إلى الديوان الوزاري العثماني. ولهذا السبب، فقد ضيّق الوزراء العثمانيون الخناق على سفير البندقية، مما دفعه لتنفيذ آخر تعليمات حصل عليها في هذا الشأن.

وعقب جولة من المفاوضات بين الدولة العثمانية والبندقية على مدار ثلاثة أشهر، وقّع الطرفان معاهدة سلام بتاريخ ١٨ جمادى الآخرة ٩٤٧هـ (٢٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٤٠م). وتنص هذه المعاهدة على تخلّي حكام البندقية عن مدينتي "مونيمفاسيا (*Monemvasia*)" و"نافليي" للعثمانيين.

كما لن يسترجع البنادقة من العثمانيين مدينتي "أورانا (*Urana*)" و"نادين (*Nadin*)" الواقعتين على ساحل منطقة "دالمسيا"، والجزر التي استولى عليها بَرْبَرُوسْ في بحر "إيجَه" مثل جزر "بطمس (*Patmos*)"، و"سكيروس (*Scyros*)"، و"أستيباليا (*Stampelia*)"، و"أجانيطس (*Egine*)"، و"نيو (*Nio*)"، و"أنتيباروس (*Antiparos*)"، و"باروس (*Paros*)". وقبل البنادقة بدفع ٣٠٠ ألف قطعة ذهبية إلى الدولة العثمانية كمصاريف المعارك التي دارت بينهما. وفي حقيقة الأمر، فإن حكام البندقية قدّموا الكثير من التنازلات والتضحيات من أجل إقرار السلام مع العثمانيين. وسلّم الموظف المدني من قبل حكومة البندقية مدينتي "مونيمفاسيا" و"نافبليو" إلى العثمانيين بموجب المعاهدة الموقعة بين الطرفين يومي ٢١ و٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر من العام نفسه.

كان السلطان سليمان قد عيّن زوج اخته "لطفي بَاشَا" في منصب الصدر الأعظم عقب وفاة "أَيَاسْ بَاشَا" (٢٦ صفر ٩٤٦هـ - ١٣ تموز/يوليو ١٥٣٩م). وكان "أَيَاسْ بَاشَا" قائدًا من الدرجة الأولى، كما اشتهر باتساع قسم الحَرَم الخاص به وبوزنه الزائد الذي لم يكن أي حصان يتحمّل نقله من مكان لآخر. ولم تكن وفاته خسارة كبيرة للدولة العثمانية، إذ كان الديوان يعجّ بالكثير من الرجال المحنكين أصحاب الخبرات في مجال الإدارة. وكان "لطفي بَاشَا" واحدًا من أبرز هؤلاء الوزراء المثقفين من الناحية الفكرية. وشعر السلطان سليمان بحاجة إلى قضاء فترة من الوقت بعيدًا عن أجواء السياسة المتلبّدة في إسطنبول، فآثر قضاء فصل الشتاء في مدينة أَدِرْنَه عقب عودته من غزوة مولدوفا. هذا إضافة إلى ميله إلى تنظيم العديد من رحلات الصيد الطويلة على امتداد المنطقة الممتدة من إسطنبول حتى "كوجالي" في الشرق. وفي إحدى المرات توجّه إلى مدينة "بورصا" إحدى العواصم القديمة لدولته، وزار أضرحة أجداده. ومن ثمّ انتقل منها إلى شبه جزيرة "جاليبولي" في الغرب، ثم خرج في رحلة صيد عائدًا إلى إسطنبول (أيلول/سبتمبر ١٥٣٩م). أعقب ذلك إقامته احتفال بمناسبة خضوع ولديْه "بايزيد" و"جِيهَانْكِيرْ (*Cihangir*)" من "خُرّم سلطان"

إلى عملية الختان. وفي الوقت نفسه، زوّج ابنته "مهرماه سلطان" بـ"رستم بَاشَا" (١١ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٣٩م). وعقب ذلك مباشرة اصطحب كلًّا من الصدر الأعظم "لطفي بَاشَا" و"رستم بَاشَا" في رحلة إلى أَدِرْنَه. وأمر بترتيب فعّاليات الصيد بالقرب من منطقة "يانبولو". وقبيل خروجه في غزوة جديدة عزل السلطان سليمان "لطفي بَاشَا" من منصب الصدارة العظمى لسوء معاملته زوجته "شاه سلطان"؛ شقيقة السلطان. وكانت شخصية "لطفي بَاشَا" تتسم بالعصبية والحدّة، وكان مغرورًا للغاية، ويثق بعلمه الشرعي. كما ألّف كتابًا عن التاريخ العثماني. وقد كتب رسالة يبرهن فيها على أن السلطان سليمان يحمل لقب خليفة المسلمين. وفي حقيقة الأمر كان السلطان سليمان يكنّ له تقديرًا واحترامًا كبيريْن، ويؤمن بأنه يلعب دورًا حاسمًا في التغير الذي تعيشه الدولة. لكن إقدامه على معاقبة امرأة زانية بطريقة بشعة، أدّى إلى نشوب خلاف بينه وبين زوجته "شاه سلطان". فتطور الخلاف إلى مشادة بالأيدي بسبب عصبيّته، فهمّ إلى لطم زوجته، إلا أن طاقم الخدم الذين كانوا موجودين في القصر منعوه من ذلك. وقد أبلغت "شاه سلطان" هذا إلى أخيها السلطان سليمان، فما كان منه إلا أن عزل "لطفي بَاشَا" عن منصبه، وعيّن مكانه "سليمان بَاشَا الخادم" الذي اكتسب شهرة واسعة بعد غزوه للهند (المحرم ٩٤٨هـ - نيسان/أبريل ١٥٤١م). ومن الواضح أن العاطفة التي كان يكنّها السلطان سليمان تجاه عائلته ستحدد طابعها في المرحلة المقبلة من حيث البناء الاجتماعي للأسرة الحاكمة.

منمنمة تُظهر السلطان سليمان في إحدى رحلات الصيد

وفي تلك الأثناء، أضحت التطورات السياسية التي يشهدها الغرب بمثابة نهاية الصمت الذي كان يسيطر على الأجواء منذ عام ١٥٣٣م. أضف إلى ذلك فإن وفاة ملك المَجَر "زابوليا (*Zapolya*)" (٢٠ تموز/يوليو ١٥٤٠م) طرحت قضية المَجَر مجددًا على السطح بشكل مفاجئ. ذلك لأن "زابوليا" كان قد أبرم اتفاقًا سريًّا قبل وفاته بعامين مع غريمه اللّدود "فرديناند". وكان هذا الاتفاق ينص على أن يعترف "فرديناند" بحكم "زابوليا" ملكًا على المَجَر، في مقابل أن يؤول الحكم في حالة وفاته إلى "فرديناند"، دون أن يترك "زابوليا" وريثًا له لتولّي العرش. وعلى ذلك، راح "فرديناند" يتحرك زاعمًا أن جميع مناطق المَجَر تخضع لسيطرته، على الرغم من ولادة طفل لـ"زابوليا" قبل وفاته بأيام قلائل. ولم يكن يُتوقع أن يرضى السلطان سليمان عن هذه الوضع. لأن العثمانيين كانوا يؤمنون بأن حدودهم الغربية لدولتهم تمتد حتى غرب منطقة "بودا" وشمالها، وليس نهر الطُونَة. وقد حاصر "فرديناند" مدينة "بودا" في أيار/مايو ١٥٤١م، مما حدا بالسلطان سليمان باتخاذ قرار بغزو المَجَر مرة أخرى (غزوة بودا).

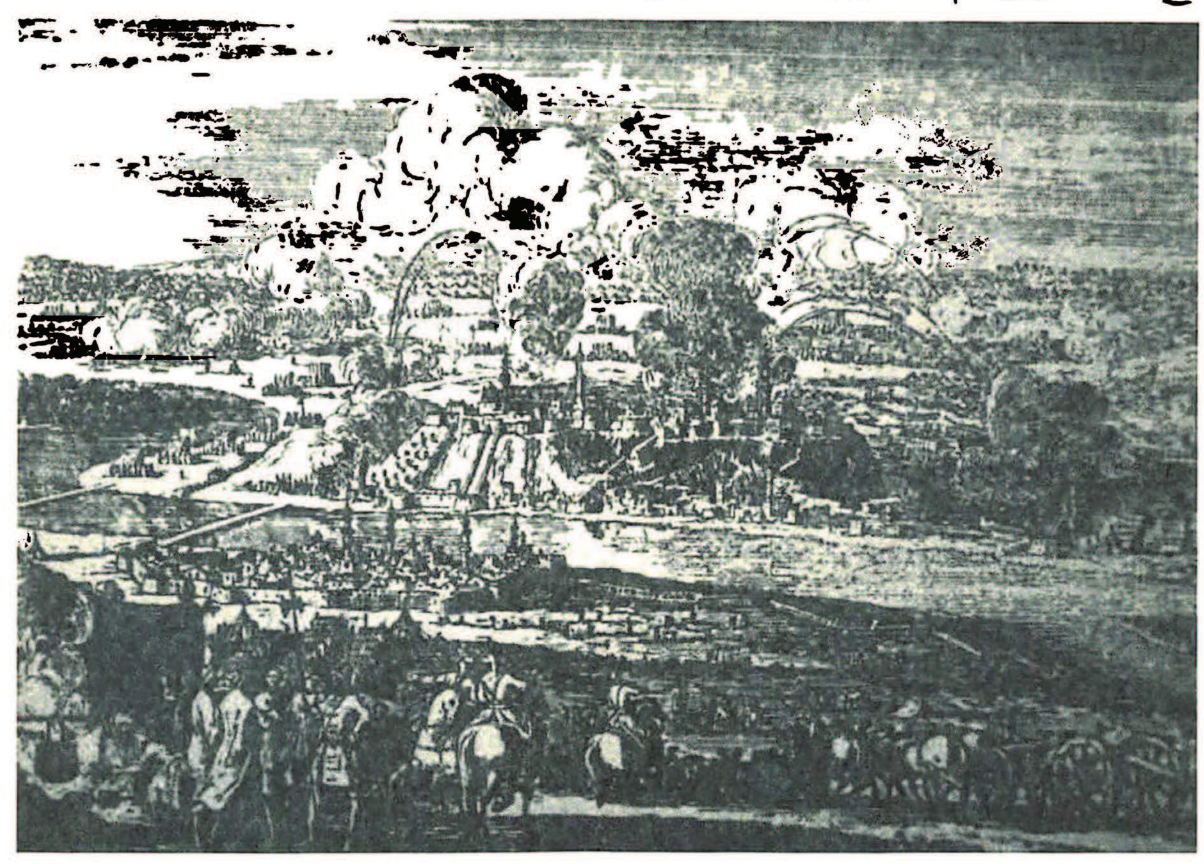
غزو المَجَر وضم "بودا" إلى أراضي الدولة العثمانية

لقد شعر ملك المَجَر "زابوليا" أنه يتحمل مسؤولية هذه الأوضاع بعد مقتل الزعيم البندقي "أندريا كِريتّي" عام ١٥٣٤م، فساوره الخوف من حركة انتقامية يقوم بها السلطان سليمان. لكنه أدرك بعدها أن السلطان حمّل مسؤولية هذه الأوضاع إلى ملك "النمسا"، وذلك من رسالة بعثها السلطان إلى فيينا، فاستراحت نفسه. أحسّ "زابوليا" بعد فترة من التردّد أنه بحاجة إلى إبرام اتفاقية مع "فرديناند".

والتقى سفراء كلا الطرفين في مدينة "فارد (*Varad*)" المَجَرية. وبعد مدة من التفاوض وتبادل وجهات النظر، استطاع الجانبان إيجاد أرضية خصبة لعقد اتفاقية بينهما في شباط/فبراير ١٥٣٨م. ونصّت هذه الاتفاقية على أن يتنازل "زابوليا" عن جميع أراضي المَجَر بعد وفاته إلى "فرديناند"، سواء أكان له ولد

يخلفه أم لا. كما تعهّد "زابوليا" بعدم إبرام أي اتفاق أو تحالف مع السلطان سليمان ضد "فرديناند" والإمبراطور "كَارْل الخامس". وقرّر الطرفان التوقيع على هذه الاتفاقية سرًّا لتيقّنهما من أن السلطان سليمان لن يوافق على اتفاقية كهذه. وقبل مرور عام واحد على توقيع هذه الاتفاقية، أقدم "زابوليا" على الزواج بـ"إيزابيلا (*İzabella*)" ابنة ملك بولندا الذي كان ينتهج سياسة عدائية تجاه آل "هابسبورج"، ومنح عائلتها جزءًا من مدن وقلاع المَجَر كهدية العرس. فلم يتحمّل "فرديناند" أن يحصل أحدٌ غيره على أجزاء من المَجَر، على خلاف الاتفاقية التي وقعها مع "زابوليا" والتي تنصّ على أن تؤول جميع أراضي مملكة المَجَر إليه بعد وفاته، فبادر بإرسال مبعوث إلى عاصمة الدولة العثمانية، وأفشى بنود الاتفاقية إلى حكومة البلاط هناك. ويروي مؤرخٌ آخر معلومات مختلفة في هذا الصدد. فيرى هذا المؤرخ أن رسولًا يُدعى "لازكي" أطلع العثمانيين على هذه الاتفاقية السرية لعداوة بينه وبين "زابوليا". وكان البولندي "هيرونيموس لازكي (*Hieronimus Laczky*)" يدافع عن مصالح "زابوليا" في إسطنبول حتى عشر سنوات مضت، لكنه منذ عام ١٥٣٨م يخدم "فرديناند" للغرض ذاته، وذلك بعد أن ساءت علاقته بملك المَجَر "زابوليا" الذي اعتبره أنه لا يمكن الثقة به. حتى إنه شاع عنه أنه أقام علاقات سرّية مع بعض الأشخاص في إسطنبول من دون علم "زابوليا". لكنه قدّم تقريرًا إلى "فرديناند" عام ١٥٣٩م أخبره فيه بالتأكيد على ضرورة انتقال حكم المَجَر بعد وفاة الملك "لويس" إلى أسرة عريقة آل "هابسبورج". وكان يعتقد أنه إذا ما أبلغ السلطان سليمان بالخلاف الحاصل بين "زابوليا" و"فرديناند"، فإن السلطان سيجد ذلك منطقيًّا. وكان يقول دومًا "يجب بذل المزيد من الجهد من أجل مساعدة الأتراك على عدم الخوف من قوة الإمبراطور وفرديناند"، ويحكي أنه سيتولّى مسؤولية إقناع السلطان في هذا الصدد. وعندما وصل "لازكي" إلى إسطنبول كمبعوثٍ من "زابوليا"، كان يحمل معه الخراج الذي يدفعه "زابوليا" للعثمانيين عن المَجَر، كما كانت لديه تعليمات بإبلاغ السلطان باستعدادهم لإعادة منطقة "كاستيلنوفا" إلى العثمانيين، وإطلاعه على رغبة الإمبراطور في توطيد سبل الصداقة مع البلاط العثماني

من دون شروط مسبقة. وأفشى أمر اتفاقية "فاراد (*Varad*)" إلى السلطان، وقدّم إليه العروض التي كان يحملها معه، إذا ما قبل السلطان سليمان هذا الوضع. لكنه في نهاية المطاف لم يستطع الظفر بشيء سوى فترة من الهدنة مع العثمانيين لم تتجاوز الستة أشهر.



نقش بارز يظهر حصار "بودين" عام ١٥٤١م

ومن ناحية أخرى، رُزق "زابوليا" قبل موته بعدة أيام بطفل ذكر، فقرر عدم تطبيق بنود الاتفاقية الموقّعة مع "فرديناند"، وأوصى بتنصيب ابنه على عرش مملكة المَجَر. وأخبر من حوله بأنه ربما يلجأ لطلب المساعدة من الدولة العثمانية لمواجهة أي هجوم محتمل يقوم به "فرديناند". وفي نهاية الأمر، عيّن "زابوليا" ثلاثة أوصياء على ابنه الرضيع، وأرسل أحد رجاله يُدعى "فيربوجي" إلى إسطنبول. وبعدها تُوفي "زابوليا"، وعلم "فرديناند" بخبر وفاته، فبعث سفيره "لازكي" إلى إسطنبول للمرة الثانية. ولم يهمل هذا السفير أي شيء يتعلق بالدفاع عن الأرشدوقية، وحماية مصالحها خلال لقائه بالمسؤولين العثمانيين، وذلك نزولًا على رغبة "فرديناند". وقد نشر "لازكي" إشاعة مفادها أن ابن "زابوليا" المولود حديثًا لم يُرزق به من "إيزابيلا"، بل وُلد من امرأة أخرى كان على

علاقة بها. وعلى الفور بدأت هذه الشائعة تنتقل بين الناس كالنار في الهشيم. مما دفع السلطان سليمان لإيفاد رسول برتبة رقيب إلى مدينة "بودا" للتحقّق من صحة هذه الشائعة. والتقى هذا الرسول بالملكة "إيزابيلا" التي أرضعت طفلها كي يصدّق أنه ولدها، فوضع الرقيب يده على صدر الرضيع، وأقسم نيابة عن السلطان سليمان بأن هذا الطفل سيتولّى حكم المَجَر في المستقبل.

وعقب وفاة "زابوليا"، أرسل أرشيدوق النمسا المنحدر من أسرة هابسبورج "فرديناند" -الذي صار يحمل تاج عرش المَجَر وبوهيميا- رسولًا إلى إسطنبول، ومن ناحية أخرى بدأ في الانشغال بتجهيز جيشه. وكان نبلاء المَجَر المنحازون لـ"فرديناند" يمنّون أنفسهم باحتلال "بودا" قبل وصول العون الذي أرسله السلطان سليمان. وقد راقت هذه الفكرة لـ"فرديناد"، فأرسل على الفور جيشًا إلى مدينة "بودا". ووصل الجيش النمساوي بقيادة "ليونارد فيلس (*Leonhard Fels*)" إلى الأراضي المَجَرية، واستولى على مدن "والتزن (*Waltzen*)"، و"إزترجوم (*Esztergom*)"، و"سيكشفهيرفار (*Stuhlweissenburg*)"، و"فسيجراد (*Vişegrad*)"، و"بشتي (*Peşte*)". لكنه لم يستطع دخول مدينة "بودا". وفي تلك الأثناء كان السلطان سليمان قد استقبل "فيربوجي (*Verböczi*)" مبعوث ملك المَجَر "زابوليا" في إسطنبول، ومنحه فرمانًا سلطانيًا مفاده أن ابن "زابوليا" سيعتلي عرش مملكة المَجَر بعد وفاة أبيه، ويحكم جميع الأراضي التي مُنحت له - وهي في الأساس مملوكة للسلطان الذي استولى عليها بالسيف - في مقابل دفع الجزية الشرعية للدولة العثمانية. وأما "لازكي" رسول "فرديناند" فقد استقبله السلطان يوم ٧ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٥٤٠م. وأبلغ السلطان سليمان بأن أراضي المَجَر مملوكة له -أي للسلطان- ووبّخه وعاتبه، ولم يقبل الحجج التي ساقها "لازكي"، وأصدر قرارًا بقطع المفاوضات الجارية مع سيّده.

وبحسب ما رواه "لازكي" في تقريره حول هذه الزيارة، فإن السلطان سليمان عنّفه تعنيفًا شديدًا بقوله:

"عندما أتيتنا كرسولٍ العام الماضي، أخبرتك بأن المَجر هي ملكٌ لي، وربما أبلغت ذلك لسيّدك. فلماذا يرسل جيشًا إلى أراضي دولتي؟ ولماذا أنت هنا؟ أين شرفك؟ فسيّدك يحاول خداعي! ويرغب في إعلان الهدنة حتى الصيف كي يستطيع تجهيز جيشه حتى ذلك الوقت، ويغير على مدينة بودا. فنحن الآن في الشتاء، ولكن الصيف حتمًا سيحلّ".

حتى إن "لازكي" بعد أن انصرف من أمام السلطان، استمر السلطان في التلفّظ بكلمات موبخة له بصوتٍ عالٍ من وراء ظهره. وعليه، فقد فطن السلطان سليمان إلى ضرورة إعلان حرب جديدة ضد "فرديناند". فجمع وزراءه ورجال دولته، وتشاور معهم على مدار ٣ ساعات حول إمكانية إعلان الحرب. وفي نهاية هذه المشاورات والمداولات، أعلن عن الاستعداد لخوض غزوة جديدة إلى المَجر.

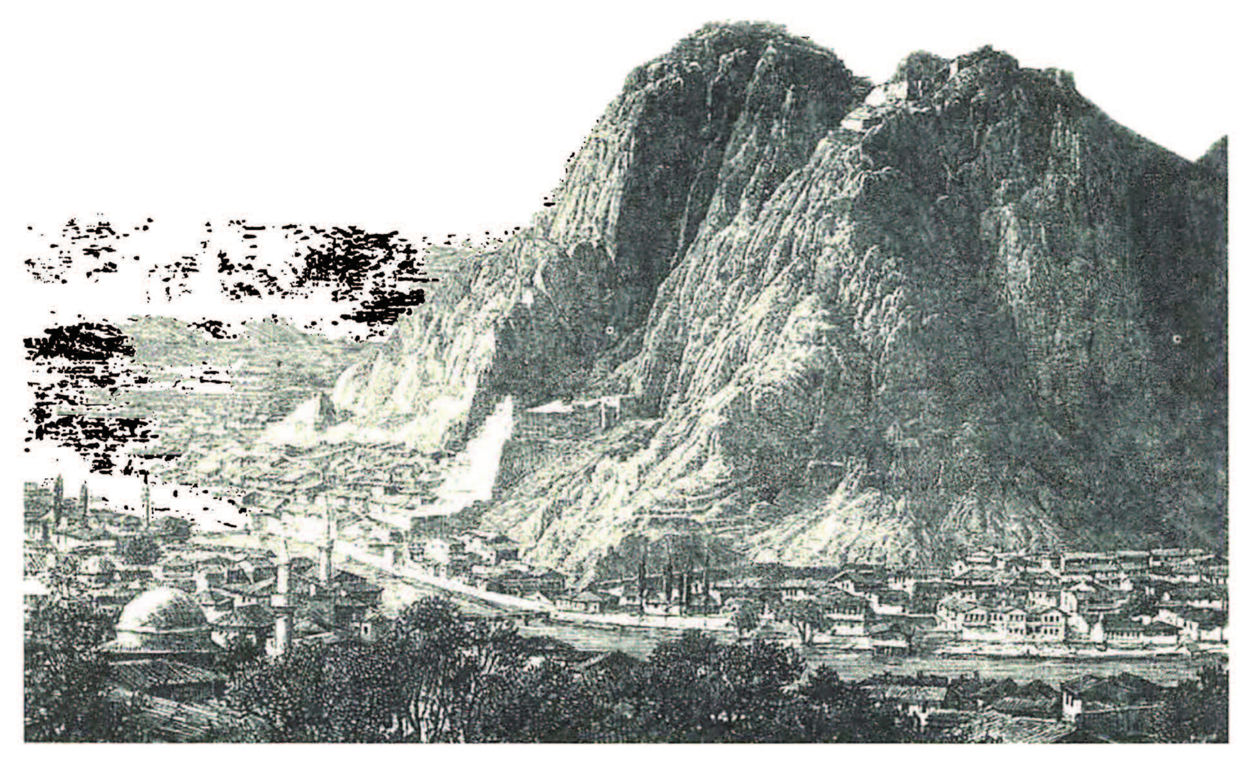
ونفهم من ذلك أن وجهة نظر الدولة العثمانية تجاه المَجر تغيّرت بشكل جذري بوفاة الملك "زابوليا". لم يكن السلطان سليمان متيقّنًا من أن مملكة المَجر ستستطيع حماية استقلالها بدعم من الدولة العثمانية في مواجهة آل "هابسبورج" كما كان في السابق. فهو كان يعتقد أن آل "هابسبورج" يسعون إلى الاتحاد مع مملكة المَجر، والزحف جنوبًا صوب نهر الطُونَة، أو حتى إلى أراضي البلقان، ليشكلوا بذلك خطرًا داهمًا على حدود الأراضي العثمانية. وبينما كان السلطان سليمان يلتقي سفير النمسا في إسطنبول ليتباحث معه حول أحوال المَجر، شعر "فرديناند" بضرورة التحرّك بشكل أكثر فعّالية، فكلّف جيشه بمحاصرة مدينة "بودا" للمرة الثانية في شهر أيار/مايو عام ١٥٤١م. ووصل جيش "فرديناند" إلى مشارف "بودا"، وبدأ في تثبيت مدافعه الكبيرة أمام المدينة، ودكّ حصونها بالقذائف ليل نهار من دون انقطاع. وبادرت القوات التابعة لـ"زابوليا" بقيادة الأسقف "مارتينوزي (*Martinuzzi*)" بالردّ بالشدّة ذاتها على القوات النمساوية التي كان يدير شؤونها الجنرالان "فون روجيدورف (*Von Roggedorf*)" و"بيريني بيتر (*Perenyi Peter*)".

وما إن وصل خبر حصار الجيوش النمساوية لمدينة "بودا" المَجَرية في ربيع عام ١٥٤١م إلى مسامع السلطان سليمان، حتى سيّر في المقدمة بعضًا من قوات الرُّومَلِي بقيادة الوزير الثالث "صوفو محمد بَاشَا" إلى المدينة للدفاع عنها. ثم تحرّك بنفسه على رأس قواته من إسطنبول يوم ٢٥ صفر ٩٤٨هـ (٢٠ حزيران/يونيو ١٥٤١م). وقد أرسل السلطان سليمان خطابًا رسميًّا لإعلان الحرب إلى "فرديناند" في اليوم الذي غادر فيه إسطنبول. وأخبر السلطان سليمان غريمه "فرديناند" في هذا الخطاب أن تحركاته العدائية لا تتوافق مع تصريحاته التي يدلي بها حول رغبته في السلام، مؤكدًا أن المَجَر تخضع لسيطرة الدولة العثمانية، والعالم بأسره على علم بهذا. وأعرب السلطان سليمان عن تعجّبه من إرسال "فرديناند" لجيشه إلى المَجَر، مشيرًا إلى أنه تحرّك بقواته لردعه بعد محاولته هدم دولة نصرانية في المَجَر. وقد بدأ السلطان سليمان في غزوته الرابعة للمجر عام ١٥٤١م، والتي أطلق عليها المؤرخون العثمانيون غزوة "إستابور (*İstabur*)".

لقد أقدم السلطان سليمان على خطوة مهمة للغاية بالنسبة لعائلته قبل انطلاقه نحو المَجَر بأربعة أيام، إذ أصدر فرمانًا بنقل ابنه الأكبر مصطفى -الموجود في مقاطعة "مَانِيسَا"- إلى إمارة مقاطعة "أَمَاسْيَا" (١٦ حزيران/يونيو ١٥٤١م). وإن كان هذا الإجراء أعاد إلى الأذهان الشبهات التي كان يشعر بها "السلطان" تجاه ابنه الأمير مصطفى، فإن السلطان قام بهذه الحركة بتأثير كامل من زوجته "خُرّم". فهذه الأخيرة كانت تسعى لتمهيد طريق العرش لابنها، وعليه فقد خطت أولى خطواتها المناهضة للأمير مصطفى الذي كانت تنظر إليه على أنه أكبر عقبة تقف في طريق ابنها لتولّي عرش السلطنة. وفعلت "خُرّم" ما بوسعها حتى استطاعت تعيين ابنها الأكبر الأمير محمد واليًا على "مَانِيسَا" بعد مغادرة مصطفى لها، إذ وفد إليها "محمد" في موكب مبهر يوم ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٤١م. وأما ابنها الآخر "سليم" فقد أرسلته إلى مدينة "قونيا" (١٥٤٢م)، تلك المدينة التي ينحدر منها الشاعر العظيم "مولانا جلال الدين الرومي"، والتي كانت تشكّل مركزًا لدولة السلاجقة، ومن بعدهما إمارة

الكرمانيين، وقد استطاع العثمانيون السيطرة عليها بشكل كامل في عهد السلطان محمد الفاتح. وكان من يدير مدينة "مَانِيسَا" يعتبر هو المرشح الأقوى لتولّي عرش السلطنة بشكل رمزي. وأما الأمير مصطفى فقد ابتعد بتعيينه حاكمًا على "أَمَاسْيَا" كثيرًا عن العاصمة إسطنبول. إلا أنه في الوقت نفسه كُلِّف بمهمة عظيمة، حيث كانت مدينة "أَمَاسْيَا" منطقة إدارية تتمتع بأهمية إستراتيجية كبيرة لقربها من المنطقة الحدودية الفاصلة بين الدولة العثمانية وغريمتها الدولة الصفوية في شرق الأناضول. وربما تكون هذه الوظيفة التي أُسندت للأمير مصطفى بحماية حدود الدولة الشرقية باسم الأسرة الحاكمة، ذريعة ضمنية لإسكات الأصوات المحتملة التي تعارض إرساله إلى "أَمَاسْيَا". إلا أن مصطفى أدرك أنه صَغُر في نظر والده السلطان سليمان مع مرور الوقت. ولم يصطحب السلطان سليمان صدره الأعظم المعيّن حديثًا في غزوته إلى المَجَر، وفضّل تكليفه بحماية حدود الأناضول الشرقية ضد أي هجوم محتمل يشنّه الصفويون. كما أمر الصدر الأعظم "سليمان بَاشَا الخادم" بمراقبة تصرفات الأمير مصطفى أثناء وجوده في الأناضول.

وكانت التقاليد العثمانية تقضي بأن يصطحب الأمراء المكلّفون بتولّي أمور إدارة المقاطعات والداتهم معهم، وأن يبتعدن عن القصر السلطاني في إسطنبول. فاضطرت "مَاهِي دَوْرَانْ" والدة الأمير مصطفى لمرافقته في رحلته إلى "مَانِيسَا". إلا أن "خُرّم سلطان" لم تذهب مع ابنها الأكبر الأمير "محمد" عندما عُيّن لإدارة "مَانِيسَا"، وآثرت البقاء في القصر. وكان أبرز الأسباب التي برّرت هذا الإجراء كونها أول جارية يتزوجها السلطان سليمان في عرس، وأما السبب الآخر فرغبتها في رعاية سائر أبنائها الآخرين الذين لا يزالون صغارًا. ووضع ابنيها الصغيرين "بايزيد" و"جِيهَانْكِيرْ" أفضل مثال على ذلك. وعليه، فقد بدأ عهدٌ جديد في القصر السلطاني مع "خُرّم سلطان". وكان امتناعها عن السفر مع ابنها إلى "مَانِيسَا" يعني أن السلطان العثماني المستقبلي سيكون واحدًا من أبنائها. كما صارت هي الآمرة الناهية في جناح حَرَم السلطان سليمان. هذا إضافة إلى أن السلطان كان يزيد ارتباطه وتعلّقه بها مع مرور الأيام.



مدينة "أَمَاسْيَا"

من ناحية أخرى، وصل الوزير محمد بَاشَا إلى مشارف مدينة "بودا"، بعد أن كان قد تحرّك قبل موكب السلطان سليمان. وبادر إلى الاشتباك مع قوات "فرديناند" التي تحاصر المدينة. وبدأت قوات محمد بَاشَا في القتال مع جيش آل "هابسبورج" الذي كان يحاصر قلعة مدينة "بودا". وكانت قوات "هابسبورج" تقاتل بأريحية كاملة وتفوق ملحوظ، نظرًا لتفوقها العددي في مواجهة الجيش العثماني. ولم تكن قوات الوزير العثماني محمد بَاشَا بإمكانها الاقتراب أكثر من جيش "هابسبورج" لما يتمتع به من كثرة البنادق والمدافع التي كانت بحوزته. ذلك لأن جيش "هابسبورج" بنى أسوارًا حصينة على هيئة مستطيل أُطلق عليها "استابور / طابور (*İstabur/Tabur*)"، وذلك عن طريق حفر الخنادق حول قواعده الحصينة، ونشر المدافع وعربات نقل المؤن والذخيرة خلفها على التوالي. وبهذه الطريقة نجحوا في تشديد الحصار على قلعة "بودا"، والصمود في وجه القوات العثمانية والتفوّق عليها. إلا أن قوات "هابسبورج" ما إن سمعت أن السلطان سليمان في طريقه إلى المدينة على رأس جيش جرار، حتى شرعت في الإعداد للانسحاب من المنطقة على الفور. وعمدت قوات جيش "هابسبورج" إلى استقلال سفنهم الراسية

في نهر الطُونَة للعبور إلى ضفته المقابلة، فعلم الوزير العثماني محمد بَاشَا بهذه التحركات، فأصدر أوامره على الفور بمهاجمة قوات العدو وهي في طريقها للانسحاب. فهرعت القوات العثمانية بالهجوم على جيش "هابسبورج"، وتمكّنت من تدمير حصونه، وقتلوا عددًا كبيرًا من جنوده. ونجح القائد العام للجيش "فون روجندروف (*Von Roggendorf*)" في الهرب من ساحة المعركة وهو مصاب، إلا أنه لقي مصرعه متأثرًا بجراحه وهو في طريقه للهرب. كما لقي المصير ذاته العديد من قادة جيش "هابسبورج". وكان من بين هؤلاء القتلى "جيرومي" شقيق "لازكي" سفير النمسا. (٢٢ آب/أغسطس).

وصلت أنباء هزيمة جيش "هابسبورج" إلى مسامع السلطان سليمان، فسُرّ لذلك كثيرًا. ووصل في نهاية المطاف إلى مشارف مدينة "بودا" يوم ٢٥ آب/أغسطس، وأمر بنصب خيمته في مدينة "أوبودا (*Obuda*)" الذي كان الاسم القديم لمدينة "بودا". ثم أرسل السلطان سليمان هدايا ثمينة إلى الأميرة "إيزابيلا" زوجة الملك "زابوليا" وابنها الصغير "جون سيجسموند (*Janos Zsigismund*)" الموجودين في المدينة. ونقل هذه الهدايا إلى قصر "بودا" رئيس رقباء الديوان السلطاني "علي أغا"، وأخبر "إيزابيلا" بطلب السلطان مقابلتها هي وابنها الصغير في خيمته. فشعرت "إيزابيلا" بالخوف من هذا اللقاء، إلا أنها قررت في النهاية الذهاب إلى خيمة السلطان سليمان برفقة وفد مكون من ستة أشخاص، كان من بينهم الأسقف "مارتينوزي"، وذلك بعد مشاورات أجروها فيما بينهم. وفي اليوم التالي اصطُحب ولي عهد المَجَر "جون سيجسموند" الذي كان يبلغ من العمر عامًا واحدًا إلى خيمة السلطان. وبعد أن التقى السلطان سليمان وليّ عهد المَجَر وأمه ومستشاريها، أمر بإسكانهم في خيمة أُعدّت خصيصًا لهم. ويُروى أن وليّ عهد المَجَر "جون سيجسموند" بدأ في البكاء عندما استقبله السلطان سليمان في خيمته، فأمر السلطان باستدعاء مرضعته، وأخذ في مداعبته وملاطفته بنفسه حتى يهدأ. وبعد أن أجرى السلطان سليمان مفاوضات مع الوفد المَجَري حول قضية المَجَر، أخبرهم بأن المَجَر صارت ولاية عثمانية. ثم بعد ذلك قدّم النشانجي "جلال زاده مصطفى شلبي" -المكلّف بشؤون الفرمانات- وثيقة حكم

المَجَر إلى الملكة "إيزابيلا" في حضرة مترجم كان بجوارهما، وأبلغها بأن ابنها سيُنصَّب على عرش المَجَر عندما يكبر. وبهذه الطريقة استطاع السلطان سليمان أن يقنع الملكة "إيزابيلا" وَسادة المَجَر. عقب ذلك أرسل السلطان سليمان وليّ عهد المَجَر "جون سيجسموند" ووالدته إلى قلعة "ليبوفا (*Lipova*)" لتولّي مهام حاكمية منطقة "أَرْدَلْ". وكان في تلك الأثناء تم تحويل مدينة "بودا" إلى مدينة عثمانية بالكامل، لتظل المدينة تحت إدارة الدولة العثمانية لنحو ١٥٠ عامًا شكّلت خلالها أكبر قاعدة للدولة العثمانية في وسط أوروبا.



السلطان سليمان في حرب بودين ١٥٤١م بينما يستقبل إيزابيلا جاكيلونكا وابنها سيغموند زابوليا

وبعد أن دخل السلطان سليمان مدينة "بودا"، أمر بتحويل كنيسة "الأم مريم" التي تعتبر من أكبر الكنائس في المدينة إلى جامع. ثم كلَّف سليمان بَاشَا بتولّي ولاية "بودا". وكان سليمان بَاشَا من أصلٍ مجري، وكان قد تولّى ولاية بغداد لفترة من الوقت، وكانت رتبته وزيرًا عندما جرى تعيينه واليًا على "بودا". وتخبرنا رسالة أرسلها السلطان سليمان إلى الصدر الأعظم "سليمان بَاشَا الخادم"، والتي يوجد نسخة منها في أرشيف "فريدون بَاشَا"، أن جميع قلاع المَجَر وملحقاتها صارت خاضعة لسيطرة الدولة العثمانية، وأنه تم تعيين القضاة والقادة العسكريين والمحافظين، كما جرى إسناد مهمة حماية "بودا" والدفاع عنها إلى الوزير سليمان بَاشَا بدعم من فرقة من الجنود. وفي الوقت الذي عُيّن فيه سليمان بَاشَا واليًا على "بودا"، أُسندت مهام القضاء إلى "خير الدين أفندي"، وشؤون المالية إلى "خليل أفندي". وقد قام "علي أفندي" بتسجيل أول تفاصيل بشأن أراضي مدينة "بودا". وبعثت

الدولة قوة عسكرية إلى سليمان بَاشَا للدفاع عن "بودا"، وكان قوام هذه القوة ألفي جندي من الإنْكِشَارِيّة، وألف فارس، و١٠ آلاف من الجنود النصارى، و٣٠٠ جندي آخرين. ويبالغ أحد المؤرخين العثمانيين في عدد هذه القوة العسكرية، إذ كتب أن مجموعها وصل إلى ٢٠ ألف جندي.

قُسّمت مدينة "بودا" إلى ١٢ مقاطعة، وأما المَجَر فقُسّمت إلى ثلاث مناطق. وهذه المناطق الثلاث كانت على النحو التالي: وسط المَجَر ومركزها مدينة "بودا" وتخضع لسيطرة العثمانيين، والجزء الذي مُنح لمملكة "أَرْدَلْ"، والجزء الواقع في شمال وشمال غرب المَجَر ولا تزال تسيطر عليه النمسا. ولم يتعرّض سكان وسط المَجَر إلى أي إكراه أو ضغط تحت حكم الدولة العثمانية. ووُضعت القوانين التي نظّمت حياة المَجَريين وحقوقهم، وسعى الولاة العثمانيون لرفع الظلم عن أهالي المَجَر بغض النظر عن توجّهاتهم. وعمد السلطان سليمان إلى تطبيق النظام الإداري العثماني في المَجَر، وأمر بتحديد الأراضي التابعة للدولة من جهة، والتعريف بالأوجه الاقتصادية والقانونية للإدارة العثمانية من جهة أخرى. كما بذل السلطان ما بوسعه كي يعيش من يخضعون لسلطة هذه الإدارة في أمان وسلام تامَّين. ومن أبرز الأمثلة الدالة على ذلك تلك التي ترويها لنا السجلات القانونية الواردة في دفاتر تسجيل أراضي ولاية "بودا".

وبينما كان السلطان سليمان متواجدًا في "بودا"، ظنّ "فرديناند" أن الجيوش العثمانية ستغير عليه، فسارع باللجوء للخيار الدبلوماسي عبر إرسال مبعوثَيْن وهما "نيكولاس فان سالم" و"سيجسموند فون هيربيرستين" الذي كان نبيلًا طاعنًا في السن. والسبب في ذلك أن عاصمته فيينا كانت خاوية من المدافعين عنها، كما أن شعب المدينة التي كان يقيم بها كان يشعر بالخوف والهلع. وكان من المقرر أن يلتقي هذان المبعوثان بالسفير "لازكي"، ويلتقوا جميعًا عددًا من الوزراء العثمانيين للاطلاع على شروط السلطان لعقْد اتفاقية سلام مع "فرديناند". بيد أن "لازكي" كان يتواجد في مقر قيادة الجيش النمساوي، إذ كان السلطان قد تركه في بَلْغِرَاد بينما كان في طريقه نحو بودا. وكان هؤلاء

المبعوثون سيبلغون السلطان بطلب "فرديناند" التنازل عن جميع أراضي المَجَر لصالحه، في مقابل دفع ضريبة لخزينة الدولة العثمانية بقيمة ١٠٠ ألف فلورين. وفي حالة إعادة الأراضي التي استولى عليها النمساويون عقب وفاة "زابوليا" إلى "فرديناند"، فإن ذلك الأخير يتعهد بسداد ٤٠ ألف فلورين سنويًا.

استقبل السلطان سليمان مبعوثَيّ "فرديناند" في "بودا" يوم ٧ أيلول/سبتمبر. وعاملهم السلطان معاملة حسنة للغاية، لكنه لم يقبل ما عرضوه. وأبلغهم بأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال عقْد اتفاق سلام مع "فرديناند" من دون أن يعيد كافة الأراضي التي استولى عليها مؤخرًا، ويتعهد النمساويون الذين يسيطرون على أجزاء من المَجَر بأن يدفعوا الضرائب للدولة العثمانية عن المناطق التي يحكمونها. ويسرد المؤرخ العثماني بَجُويْلُو هذه الواقعة بقوله

"... جاء رسولٌ مُعتَبر من الملك فرديناند، وجلب معه العديد من الهدايا الثمينة. وطلب من السلطان سليمان منح فرديناند مدينة بودا في مقابل سداد الخراج إلى الدولة العثمانية، بعد أن أُعطيت للملك يانوش زابوليا. فأجابه السلطان بضرورة رفع فرديناند يده عن أراضي المَجَر، وإرسال خراج النمسا التي يحكمها عامًا بعام إلى خزينة الدولة العثمانية. وعليه يمكن عقْد معاهدة سلام معه، وإن لم يفعل فلن يكون للسلام مكان. فتلقّى رسول فرديناند هذه الإجابة، وغادر المكان عائدًا من حيث جاء..."

ووضع السلطان سليمان إعادة "فرديناند" مدن "إسترجون"، و"تاتا (*Tata*)"، و"فيسجراد (*Vişegrad*)"، و"سيكشفهيرفار (*Stuhlweiszenburg*)" كشرطٍ لإبرام اتفاق سلام معه. وعلى الرغم من أن سفراء النمسا لم يحققوا نجاحًا في هذه الزيارة، إلا أنهم استطاعوا استمالة بعضٍ من نبلاء مدينة "أَرْدَلْ" إلى صفّ آل "هابسبورج". والسبب في ذلك أن أحد النبلاء المَجَريين ويُدعى "بالاسا" بادر إلى تحريض أهل "أَرْدَلْ" ضد العثمانيين. حتى إن السلطان بعث فرمانًا إلى سكان "أَرْدَلْ" حذّرهم فيه، ودعاهم إلى إظهار الولاء، وذكّرهم بتبعيتهم إلى وليّ العهد "جون سيجسموند" ووالدته الملكة "إيزابيلا" تحت حمايته شخصيًا.

وهدّدهم بأنه في حالة انصياعهم لأفكار "فرديناند" حول العصيان ضد الدولة العثمانية، فإنهم سيعرّضون أنفسهم لمشاكل لا قِبل لهم بها. وحذّرهم من أن قوات السلطان سيكون لها الحق حينها في تخريب بلادهم بدعم من قوات التتار. وبهذا الشكل بدأ يُستشعر بالهيمنة العثمانية الكاملة في (أردل)، وبشكل واضح. وفي تلك الأثناء، جاء إلى السلطان السفير الفرنسي "بولين" ليبلغه بخبر مقتل السفير السابق "رينسون" في إيطاليا. وعقب ذلك غادر السلطان سليمان مدينة "بودا" يوم ٢٧ أيلول/سبتمبر، ووصل إلى إسطنبول يوم ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٥٤١م (٨ شعبان ٩٤٩هـ). وقبل أن يغادر السلطان "بودا"، أي يومي ٢٣-٢٤ أيلول/سبتمبر ١٥٤١م، وصلته أنباء عن تعرّض إمبراطور هابسبورج "كَارْل الخامس" لهزيمة ساحقة في الجزائر التي أنزل بها جنوده في محاولة منه لبسط نفوذه على منطقة شمال إفريقيا.

هزيمة الإمبراطور "كَارْل الخامس" في الجزائر عام ١٥٤١م

بينما كان السلطان سليمان في طريقه نحو غزو المَجَر، أمر قائد البحرية بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين بالتوجّه إلى سواحل البحر الأدرياتيكي للدفاع عنها على رأس أسطول مكون من ٧٠ سفينة. ذلك لأن الجناح الإسباني من إمبراطورية "هابسبورج" ألقى بثقله إلى البحر الأبيض المتوسط، ووضع نصب عينيه السيطرة على الجزائر بعدما استولى على تونس في شمال إفريقيا. وكان "بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين بَاشَا" يحمل لقب قائد القوات البحرية العثمانية، وفي الوقت نفسه كان يتولّى مهمة تسيير شؤون منطقة غرب الجزائر. وقد أوكل بَرْبَرُوسْ شؤون الجزائر إلى ابنه بالتبنّي "حسن أغا الخادم". وكان هذا الأخير يزاول أعمال القرصنة في البحر المتوسط، ويهدد سواحل أوروبا الممتدة من جزيرة "صقلية" في الشرق حتى مضيق "جبل طارق" في الغرب. وكان يتعرّض للبضائع الثمينة القادمة من العالم الجديد في البحر ويصادرها. ولهذا السبب كان الإمبراطور "كَارْل الخامس" يتطلع لغزو الجزائر من أجل القضاء على قاعدة القرصنة هذه بالقوة. فبعد أن قمع الثورة البروتستانتية المندلعة في بلجيكا، أصدر الإمبراطور

قـرارًا بالتحـرك من ألمانيا نحو الجزائر بنفسـه علـى رأس جيش قوامه ١٢ ألف جنـدي مشـاة وألف فـارس ألماني عابـرًا منطقة "تيرول (*Tirol*)" غرب النمسـا، وإقليـم "لومبارديـا (*Lombardiya*)" شـمال إيطاليـا. حتـى إن "كَارْل الخامس" لـم يسـتمع إلـى النصائح التي أسـداها إليه البابـا و"أندريا دوريا" بشـأن تأجيل هـذه الغزوة لاقتراب فصل الشـتاء، وقال لهم إنه بإمكانـه الانتهاء من هذا الأمر في غضون فترة قصيرة لا تتعدّى ٤٠-٥٠ يومًا.



تنصيب بربروس خير الدين باشا قائدا بحريا (٦ نيسان/أبريل ١٥٣٤م)

وكان الإمبراطـور "كَارْل الخامـس" شـخصية ذات وجـه يمتـاز بالجفـاف والصلابة والطول والضعف في آنٍ معًا، وكانت جبهته وأنفه مرتفعتين، وشـفتاه نحيلتين، وعيناه وحشيتين، ولحيته كثّة تتدلّى من ذقنه حتى صدره، وشاربه مائل إلـى أعلـى، وعظامه وعضلاتـه قد غُطّيـت بالحلقات والألـواح المعدنية (كناية عـن الـدروع التـي كان يرتديهـا). وكان الإمبراطـور معتادًا على الإبحـار وكأنّه قبطـان يرشـد السـفن الضالـة في طريقهـا. وبعد أن باركـه البابـا، انطلق ليلحق بأسـطوله الـذي ينتظـره فـي مدينة "لا سبيتسـيا" شـمال غرب إيطاليـا في أوائل شـهر آب/أغسـطس عام ١٥٤١م. ووصل الإمبراطور إلى ساحل "بورتو فينيري (*Porto Venero*)" الـذي يتواجـد به أسـطول مكون من ٣٦ سـفينة بقيادة "أندريا

دوريا". وركب سفينة "دوريا" برفقة بعض الأشخاص الذين كانوا بصحبته، والذين كان من بينهم بعض النساء النبيلات. وقد تعرّض أسطول الإمبراطور "كَارْل الخامس" لعدد من العواصف وهو في الطريق، ووصل في النهاية إلى ميناء جزيرة "ميروقة" الذي كان يمثل مكان التجمُّع الرئيسي لسفن الأسطول. وقد تحرّك أسطول الإمبراطور من هناك إلى الجزائر، إذ تشكّل الأسطول من ٦٥ قادسًا، ونحو ٤٠٠ سفينة نقل وسفينة غير شراعية، بما في ذلك السفن التي كانت منتظرة في ميناء جزيرة "إيبيزا"(٨٠).

وبدأت سفن الأسطول الإمبراطوري تَلُوح في أفق سواحل الجزائر يوم ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٤١م، ثم عمدت إلى إنزال الجنود إلى الساحل بعدها بثلاثة أيام بتعليمات من الإمبراطور نفسه الذي كان يتواجد على متن سفينة الأميرال قائد الأسطول.

وفي اليوم التالي، دخلت الجزائر قوة قوامها ٢٥ ألف جندي منهم ٦ آلاف إيطالي، و٦٦٠٠ إسباني، و١٢ ألف ألماني، وألف فارس، و٤٠٠ مالطيّ. وفي تلك الأثناء كان "حسن أغا" في الجزائر يترأس قوة صغيرة قوامها ٢٦٠٠ جندي منهم ٦٠٠ تركي، وألفان من العرب. لكن هذه القوة -رغم صغرها- ستتمكن من إفشال محاولات جيش الإمبراطور لاقتحام الجزائر بمساعدة الظروف المناخية. إذ إن قوات الإمبراطور "كَارْل الخامس" بينما كانت تتقدم نحو الأراضي الجزائرية، تعرضت لهجوم القوات التركية والعربية بين الفينة والأخرى. حتى إن جيش الإمبراطور فَقَدَ ٣ آلاف جندي خلال هذا التوغّل القصير. وما إن وصلت سفن أسطول الإمبراطور إلى سواحل الجزائر، حتى صدرت أوامر بفرض حصار على المدينة. وأُرسلت تعليمات لقادة سفن الشحن والنقل بإنزال المدافع الثقيلة ومستلزماتها من على السفن وتثبيتها على الساحل فورًا. وبينما الأمر كذلك، هبّت عاصفة شديدة وبدأت الأمطار تهطل

---

(٨٠) جزيرة إيبيزا: هي جزيرة من أرخبيل جزر البليار ذاتية الحكم تقع في البحر المتوسط وتتبع إسبانيا. (المترجم)

بغزارة، مما وضع القوات البرية والبحرية للإمبراطور في مأزقٍ شديد. وكان الجنود يشعرون ببرودة الجو، ويرتعدون تحت الرياح العاتية بملابسهم المبتلّة، بعدما نزلوا من السفن من دون خيام أو أغطية تقيهم المطر. وقد شجّعت حالتهم المزرية تلك المدافعين عن الجزائر على زيادة هجماتهم ضد قوات الإمبراطور. ومع اشتداد الرياح، أمر "حسن أغا" بفتح أبواب قلعة الجزائر، وخرجت قواته في ساعات الصباح الباكر لتهاجم الجهة التي كان الجنود الإيطاليون يعسكرون بها، مما أصاب هؤلاء الجنود بذعرٍ شديد، وأجبرهم على الفرار من أرض المعركة. فسارع قائد القوات الإسبانية إلى نجدة الجنود الإيطاليين، وحاول تحفيزهم وتشجيعهم على خوض المعركة وعدم الانسحاب. فتناول الجنود الإيطاليون بنادقهم لمواصلة المعركة، لكنهم لم يستطيعوا إطلاق النار منها لابتلال البارود بمياه الأمطار. ما دفعهم في نهاية المطاف إلى مقاومة قوات "حسن أغا" بالسيوف والحراب والأسهم التي كانت بحوزتهم. فاضطرت قوات "حسن أغا" للانسحاب أمام هذه المقاومة من الجنود الإيطاليين، واستدرجوا القوات الإيطالية والمالطية حتى مشارف القلعة، وبدأ بإمطارهم بوابل من القذائف المدفعية من أبراج القلعة، ودفع بالقوات العثمانية لقتالهم، مما دمّر معظم قواتهم. وفرّ الإيطاليون هاربين مجددًا بعدما مُنوا بهزيمةٍ ساحقة. وعندما رأى "حسن أغا" الجنود الإيطاليين وهم يهربون، بادر إلى الخروج من القلعة لتتبّعهم، ثم عاد إلى القلعة واحتمى بها. لكن هذه المرة لم تجرؤ القوات الإسبانية على ملاحقته.

بادر "حسن أغا" فيما بعد إلى إمطار قوات الإمبراطور بوابل من السهام من الأماكن المرتفعة المنيعة التي كانت تطل على أرض المعركة، وألحق خسائر كبيرة بِكُتيبة الجنود الألمان الذين كانوا في مقدمة الجيش. ولقد تعرّض الجنود الألمان لهزيمة معنوية، فألقوا السيوف والحراب التي كانت بحوزتهم، وفرّوا هاربين من المكان. فاستشاط الإمبراطور غضبًا عندما رأى ذلك المشهد، واستلّ سيفه، وامتطى جواده، وألقى بنفسه في أرض المعركة لتشجيع جنوده على القتال. مما دفع "حسن أغا" إلى الانسحاب مرة أخرى. وما إن وصل

الإمبراطور وجنوده إلى أرض فارغة تعقبًا لقوات "حسن أغا"، بدأت المدافع العثمانية في قصف قوات الإمبراطور، فأُجبرت في النهاية على الانسحاب. وفي تلك الأثناء كانت سفن أسطول الإمبراطور قد أنزلت المدافع والذخيرة التي كانت تحملها إلى البر بعدما هبّت رياح شديدة وارتفعت أمواج البحر، وبدأ بعضٌ منها في التخبّط والاصطدام ببعضها البعض، وأما البعض الآخر فانجرف إلى الساحل بعدما انكسرت سلاسل المراسي الخاصة بها. وخلال فترة وجيزة لم تتجاوز ٥-٦ ساعات غرقت نحو ١٥٠ سفينة من أسطول الإمبراطور. وكانت الغالبية العظمى منها من السفن الشراعية. كما هَوت بعض السفن المجدافية الأخرى على الساحل. وكان من بين هؤلاء القادة الإسباني "إرنان كورتيس" فاتح المكسيك، والذي كان يشتهر بظلمه وجوره، إذ شارك في هذه الغزوة برفقة اثنين من أبنائه على متن سفينة جهّزها لحسابه الخاص. وبعدما انجرف "كورتيس" إلى الشاطئ، هاجمه المقاتلون العرب بحرابهم، إلى أن استطاع إنقاذ نفسه من بين أيديهم بشقّ الأنفس. وقد فقد أسطول الإمبراطورية ١٢ ألف جندي في هذه الكارثة التي ألمّت به.

اجتمع الإمبراطور "كَارْل الخامس" بقيادة مجلس الحرب، ذلك لأن جيشه كان يعاني من نقص الغذاء، على الرغم من توقف هطول المطر. كما لم يكونوا يملكون حينها المدافع والذخيرة اللازمة من أجل حصار الجزائر، وكانت معظم مؤنهم وأسلحتهم قد غرقت مع السفن التي غاصت في أعماق البحر. وقد اقترح "أندريا دوريا" تعقّب قوات الإمبراطور الساحل، ومن ثم التوجّه صوب رأس "ماتيفو"، وإنشاء معسكر محاط بالخنادق والمتاريس في تلك المنطقة، وإركاب الجنود على متن السفن. وهو ما قبله المجلس بإجماع الآراء. وبدأ الانسحاب يوم الجمعة الموافق ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر.

ولما شاهد "حسن أغا" قوات الإمبراطور وهي تنسحب، أمر بفتح أبواب القلعة، وخرج على رأس قوة من الجنود العرب المحليين لتعقّب قوات العدو. وكانت الأمطار في ذلك الوقت تهطل بشكل خفيف. وقد امتلأت الطرقات

بالوحل وبرك المياه الناجمة عن الأمطار، مما جعل جنود الإمبراطور يعانون الأمرّين في طريق سيرهم. وعبرت قوات الإمبراطور مياه "وادي الكمين" سباحةً. ولما وصلوا إلى "وادي الحراش" عانوا كثيرًا حتى تمكّنوا من عبور مياهه؛ ذلك لأن مياه الوادي كانت هائجة نظرا لارتفاع منسوب الفيضان بها، حتى إن بعض الجنود تعرّضوا للغرق في تلك المياه. وكان الجنود الإيطاليون في مؤخرة الجيش، فأدركهم جنود "حسن أغا"، وقضوا على جزء منهم، وآثر الجزء الآخر إلقاء نفسه في المياه والغرق هربًا منهم. واستطاع قليلٌ منهم العبور إلى الضفة المقابلة. وأما "حسن أغا" فلم يُرد التقدّم أكثر، وعاد أدراجه إلى قلعته. وقد جمع "كَارْل الخامس" مجلس حربه مجددًا يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر، وتشاور مع أعضائه حول شؤون الحرب والخطوات التي يتعيّن عليهم الإقدام عليها خلال المرحلة المقبلة. وقد اقترح "إرنان كورتيس" -الذي أنقذ نفسه بأعجوبة خلال الحرب- حصار قلعة الجزائر من جديد، واقترح ضرورة عودة السلطان إلى أرض الوطن، ومن ثمّ يتحركون هم بشكل أكثر حرية في أرض المعركة. إلا أن القادة الآخرين اعترضوا على هذا الاقتراح، وفي نهاية الاجتماع اتخذ الإمبراطور قرارًا بإنهاء هذه الغزوة، ونقْل جميع الجنود بمن فيهم جنوده إلى السفن لمغادرة المكان من حيث أتوا. ولقد شكّلت عملية نقل الجنود إلى السفن معضلة بالنسبة للإمبراطور. حتى إنهم اضطروا لإلقاء المدافع والذخائر وسائر مستلزمات القتال الأخرى في البحر لتخفيف الحمل عن السفن، كما عمدوا إلى قطع أرجل جيادهم المتميزة وألقوها هي الأخرى في مياه البحر للغرض ذاته. وبينما هم كذلك، هبّت عاصفة شديدة أخرى أفضت إلى انجراف عدد من السفن إلى الشاطئ وهي تحمل على متنها الجنود. وأدرك حينها الإمبراطور أنهم لن يقدروا على مجاراة الرياح، فأمر بترْك الجنود الذين انجرفت سفنهم إلى الشاطئ، وإبحار السفن الأخرى. وقد أسر أهل الجزائر هؤلاء الجنود الإسبان الذين تُركوا على الشاطئ. واستطاع الإمبراطور العودة إلى إسبانيا برفقة السفن التي تم إنقاذها بصعوبة بالغة.

غزو المجَر مجددًا والاستيلاء على قلعة "إسترجون"

عندما عاد السلطان سليمان إلى إسطنبول من غزوة المَجَر، كان عقله لا يزال يفكّر بها. ذلك لأنه كان على علم بأن آل "هابسبورج" لن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام ضمّ "بودا" إلى الأراضي العثمانية وتشكيل ولاية بها. وفي تلك الأثناء، جاء السفير البرتغالي "ديوجو دي ميسكيتا (*Diogo de Mesquita*)" إلى إسطنبول. فحصل من الديوان العثماني على خطاب جاء فيه شروط إبرام معاهدة سلام مع ملك البرتغال بتاريخ ٢٨ أيار/مايو ١٥٤٢م، ورافقه القائد العثماني "الرئيس صالح" حتى ودّعه عند مضيق "جبل طارق". وشهدت تلك الفترة وصول أنباء سارّة من اليمن. لكن "فرديناند" لم يكن قد تخلّى عن فكرة الاستيلاء على مدينة "بودا". وقد تم تعيين أمير "براندنبورج (*Brandenburg*)" "يواكيم (*Joachim*) الثاني" قائدًا لجيش الإمبراطورية، فانطلق نحو "إسترجون" يوم ٢٠ آب/أغسطس ١٥٤٢م، ثم سلك طريق "فيسجراد" حتى وصل إلى مدينة "بست" المقابلة لمدينة "بودا" يوم ٢٨ أيلول/سبتمبر. وفي واقع الأمر، فإن "فرديناند" كان قد بعث رسولًا إلى السلطان سليمان فور وصوله إلى إسطنبول ليعرض عليه مطالبه التي كان أصرّ عليها في الماضي. وكان هذا الرسول هو "ترانكيليوس أندرونيكوس (*Tranquillus Andronicus*)" الذي جاء إلى إسطنبول قبل عامين. وقد وصل هذا الرسول إلى إسطنبول في نهاية فصل صيف عام ١٥٤٢م،



قلعة "أسترجون"

وكانت التعليمات التي لقّنها "فرديناند" قبل مجيئه في يوم ١٠ تموز/يوليو، تنص على تنازل الدولة العثمانية عن المَجَر لصالح "فرديناند" مقابل سداده ضريبة سنوية بقيمة ٥٠ ألف قطعة ذهبية، وإن لم يكن ذلك كافيًا، يُزاد هذا المبلغ إلى ١٠٠ ألف قطعة ذهبية، وهو العرض نفسه الذي كان قد تقدّم به في السابق. لكن مسؤولي الديوان العثماني شعروا بأن هذا العرض ليس ذا أهمية كبيرة، فلم يجدوا حاجة حتى إلى اصطحاب هذا الرسول إلى السلطان سليمان للقائه. كما أبلغ الصدر الأعظم "سليمان بَاشَا الخادم" هذا الرسول باستحالة إبرام معاهدة سلام مع سيّده ما لم يتنازل عن القلاع التي استولى عليها. وحذّره من أن "فرديناند" إن لم يتراجع عن طلباته تلك، فإنه سيلقي هو وعائلته المصير ذاته الذي لقيه "علاء الدولة" في السابق. كما هدّده "رستم بَاشَا" الذي كان يتولّى منصب الوزير الثاني في ذلك الوقت بقوله:

"إن الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا قد ضغط على فيينا بطرف أصبعه قبل ذلك، وأما أنا فلا أفعل ذلك، بل أقبض عليها بكلتا يديّ!"

وهكذا فشل الرسول "ترانكيليوس" في الوصول لمراد سيّده، واضطر للعودة إلى بلاده بخُفيّ حنينٍ في شهر تشرين الأول/أكتوبر ١٥٤٢م. وأما "فرديناند" فهمّ إلى تطبيق مخططه القديم، وأخذ في إرسال الرسل إلى إسطنبول من جهة، والإعداد لحملة عسكرية واسعة النطاق من جهة أخرى. وقد عقد مجلس الإمبراطورية في مدينة "سبير" الألمانية في ربيع عام ١٥٤٢م، وقد أدرك الأمراء الألمان خطورة الموقف في نهاية المطاف، وقرروا تمويل الحرب في اجتماعهم بمدينة "نورنبرج" في صيف العام ذاته. وكان قد قرر اجتماعٌ عُقد قبل ذلك عام ١٥٣٢م تقديم الدعم للتصدي للأتراك، وأما الآن فقادة أوروبا عازمون على تنفيذ هذا القرار. ويعتبر مصطلح "المساعدة التركية" هو مصطلح شاع استخدامه في تلك الحقبة، ويعني تأسيس جيش مشترك وتوفير مصادر تمويله من أجل التصدي لغزوات العثمانيين على منطقة وسط أوروبا. وقد حصل هذا التوجّه على دعم من البابا نفسه، وتجمّع جيشٌ كبير

من العديد من الدول. وكان هذا الجيش يضم جنودًا من شعوب أوروبية متعددة باستثناء الفرنسيين، وأُسندت قيادته إلى أمير براندنبورج "يواكيم الثاني" للعبه دور الوسيط بين الأمراء البروتستانتيين والإمبراطور. وقد اكتسب هذا الأخير شهرةً واسعة بعدما ألحق هزيمة بأحد فروع قوات المغاوير العثمانية التي كانت تتقدم نحو مدينة "لينتز" النمساوية بقيادة الأمير "قاسم" أثناء الزحف على ألمانيا عام ١٥٣٢م. إذ بالغ المؤرخون الألمان في تلك الحقبة عندما نقلوا هذا النجاح الذي حققه أمام القوات العثمانية. وقد منحه الإمبراطور لقب "فارس" بعد إنجازه هذا، كما عُيِّن تحت إمرته عشرة مستشارين عسكريين. وكانت رواتب الجنود ستُدفع من الإيرادات الواردة من ضرائب الإمبراطورية التي تشكلت تحت مسمى صندوق "التمويل العام". ويجمع هذا الصندوق إيراداته من دخول وثروات جميع سكان الإمبراطورية من جميع الطبقات. وكان "يواكيم الثاني" يشعر بقلق شديد إزاء إلحاق مدينة "بودا" بأراضي الدولة العثمانية، ويقول

> "إذا واصل الأتراك مساعيهم إلى ضمّ المزيد من الأراضي في أوروبا، وحالفهم الحظ في الاستيلاء على المزيد من المناطق في المَجَر ومولدوفا وسليزيا؛ فسيحين الدور على أراضينا ليستولوا عليها هي أيضًا."

وأما جنود المَجَر فكان يقودهم "بيريني بيتر (*Perenyi Peter*)". وبينما كان هذا الجيش يتوجّه نحو "بودا"، كان أسطول بحري في طريقه صوب المدينة ذاتها عبر نهر الطُونَة. وقد تلقّت الحكومة العثمانية خبر هذا الهجوم الكبير الذي يقوم به "فرديناند" بواسطة السفير الفرنسي، فصدرت أوامر إلى حاكم منطقة الرُومَلِي أحمد بَاشَا بالاستعداد للحرب، كما أُرسلت تعليمات إلى كلّ من "علْما بَاشَا"، و"دوكاكين زاده (*Dukakinzâde*) محمد بَكْ"، و"أرسلان بَكْ" للإسراع إلى حماية "بودا" في مواجهة قوات "فرديناند". وكانت تلك الفترة قد شهدت تعيين "بَالِي بَاشَا" واليًا على مدينة "بودا" مكان سليمان بَاشَا الذي تُوفي في وقتٍ سابق. ووصل جيش "هابسبورج" إلى مشارف مدينة "بست" المقابلة لمدينة "بودا" على الضفة المقابلة لنهر الطُونَة. وقد خرجت الوحدات العسكرية

العثمانيـة مـن قلعـة المدينـة، ودخلت في اشـتباكات مـع القـوات المهاجمة، إلا أنها اضطرت في نهاية المطاف إلى الانسحاب إلى القلعة مرة أخرى والدفاع عنها، نظرًا لكثرة أعداد جيش العدو. وكانت القوات العثمانية مؤلفة من ٨ آلاف جنـدي، منهم ٣ آلاف من الإِنْكِشَـارِيّة، بقيادة "يوسـف أغا". وقد حاصر جيش التحالف مدينة "بسـت"، وأمطر القلعة بوابلٍ من القذائف المدفعية التي أحدثت أضـرارًا مادية جسـيمة بجدرانها. وحاولت القـوات العثمانية الدفاع عن المدينة عن طريق حفر الخنادق والمتاريس، لكن قوات العدو اسـتطاعت دخول القلعة مـن الثقوب التي فتحت في جدرانها بسـبب القصـف العنيف، إلا أن المدافعين عـن القلعـة ألحقوا هزيمة نكـراء بالجنود الأعـداء الذين توغلـوا داخل القلعة. وبينما الأمر كذلك، نشـب خلاف بين وحدات جيش التحالف، إذ دخل الجنود المشـاة الألمان في مناقشـات حادّة مـع قادتهم لعدم حصولهـم على رواتبهم، وقـرّروا الانسـحاب مـن أرض المعركـة بعدمـا لـم يحصلوا على مسـتحقاتهم الماليـة. وكانت قـوات جيش التحالف قد تلقّت هزيمـة موجعة في آخر هجوم علـى القلعـة، مما اضطرها إلى اتخاذ قرار رفـع الحصـار عنها. وكان "فرديناند" قـد جمـع قواتـه مـن كل أرجاء أوروبـا بعدما أشـاع أنباء تتحـدث عن خطورة الدولـة العثمانيـة على جميـع البلدان الأوروبية في أعقاب اسـتيلائها على مدينة "بـودا" وضمها إلى أراضيها. وقد اضطرت قواته للانسـحاب بعد أسـبوع كامل مـن الحصار، حتـى إنها تعرّضت في أثناء انسـحابها لهجوم مفاجئ من الجيش العثمانـي الـذي ألحق بها خسـائر كبيرة. وقد صـار هذا الحصار مصـدرًا للعار بالنسبة لـ"فرديناند". ويروي أمير مدينة بورتينباخ "سبيتيان سشرتلين" قائد وحدة الجنود المرتزقة الذين شاركوا في الحرب، ما يلي:

> "عسـكروا لفترة طويلة على مشـارف فيينا. ولم يسـتطع الجيش التركي الوصول إلى هناك بسهولة. لكنهم شرعوا يتحركون في فصل الخريف. وحاصروا مدينة "بشـتي"، وتمركزت جنودهم في مواقـع سـيئة. ومن ثم هاجموا المدينة بشكل عشوائي، وانسحبوا من أرض المعركة مهزومين، ممـا جعلهم عرضةً للتندّر والسـخرية من كافة بلدان العالم المسـيحي.

وخُسِـرَوْ فـي هذه المعركة ١٥ ألف جندي من خيـرة الرجال، وأضاعوا الأموال التي جمعوها من دون الاستفادة بها في أمر مفيد".

وعندما سـمع السـلطان سـليمان بأنباء حصار مدينة "بسـت"، توجّه نحو مدينـة "أَدِرْنَـه". ومـا إن وصلته أخبار هزيمة قوات "هابسـبورج" على مشـارف "بسـت"، قرر قضاء فصل الشـتاء في "أَدِرْنَه"، والانتظار بها من أجل الخروج في غزوة في فصل الربيـع. ولقد كان مرور فصل الشتاء قاسيًا وصعبًا، مما أدّى إلى أن يعاني الشـعب معاناة جمّة. وقد أرسـل السـلطان سـليمان أوامـر إلى حاكم الرُّومَلِي أحمد بَاشَـا في عيد النيروز كي يجمـع جنوده. كما أولى اهتمامًا كبيرًا بشؤون الانضباط داخل صفوف الجيش، وتوفير المؤن والأطعمة اللازمة للغزوة. وفي النهاية، تحرّك السـلطان ويرافقه ابنه الأمير "بايزيد" يوم ١٨ المحرم ٩٥٠هـ (٢٣ نيسـان/أبريل ١٥٤٣م)، بعد قضائه ٤ أشـهر في "أَدِرْنَه". ووصل السـلطان إلـى مدينة "بَلْغِرَاد" يـوم ٤ حزيران/يونيو، واتحدت قواته بقوات حاكم الرُّومَلِي أحمـد بَاشَـا الـذي كان قد انطلـق في وقت سـابق. كما لحق حاكـم الأناضول إبراهيم بَاشَـا كذلك بالجيش. وبعد انطلاق السـلطان سليمان من "أَدِرْنَه" بوقت قصير، كان حاكما بودا "بَالِي بَاشَـا" والبُوسْـنَة "عُلَمَا بَاشَـا" قد تقدّما بجيشيهما. وقد انطلق كلٌ من "عُلَمَا بَاشَا"، وحاكم مدينة أوسييك "مراد بَكْ"، وحاكم مدينة مُوهَاجْ "قاسم بَكْ"، واستولوا على قلعة "أثين" المتاخمة لمدينة "بوجيجا" شرق كرواتيـا، وبسـطوا نفوذهم على عـدد من القلاع الأخرى في تلـك المنطقة مثل "سافرونيكا (*Safronica*)"، و"بلوستينا (*Belostina*)"، و"راهوتشزا (*Rahoçza*)". ومن ناحية أخرى استولى "بَالِي بَاشَا" على قلعة "نانا (*Nana*)". أعقب ذلك تقدُّم القـوات العثمانية حتى وصلت إلى قلعة "فالبـو" التي كانت أكثر تحصينًا مقارنةً بالقلاع السابقة. وحاصر أمراء الولايات الحدودية العثمانية هذه القلعة، وأحكموا حصارهم عليها. ثم انضمّت إليهم قوات أحمد بَاشَا، وأمطروها بوابل من قذائف المدافـع، مما أسرع عملية تهدّم جدرانها، وأُجبر المدافعون عنها على الاستسلام للقـوات العثمانية. وقد وقعت قلعة "فالبـو (*Valpo*)" في أيدي العثمانيين بتاريخ ٢٢ حزيران/يونيو، ثم انطلقوا للاستيلاء على قلعة "شيكلوش (*Şikloş*)".

ولما وصل السلطان سليمان إلى مدينة "أوسييك (*Ösek*)"، وصله نبأ فتح قلعة "فالبو (*Valpo*)"، فأمر السلطانُ حاكمَ "بودا" بإقطاع قائد هذه القلعة "سانتا ميخلاي (*Santa Mihaly*)" جزءًا من الأراضي. كما أصدر السلطان فرمانًا بتوطين سكان مسلمين في هذه القلعة، وتعيين خطيب للمسجد وإمام ومؤذن. وفي واقع الأمر، اتخذ السلطان سليمان قرارًا بالخروج في هذه الغزوة بغرض السيطرة على القلاع المجاورة لمدينة "بودا" التي ألحقها بأراضي دولته، وذلك بُغية توفير الأمن والأمان لأهلها، وتوسيع رقعة المدينة بضمّ مناطق جديدة لها. وبهذه الطريقة فقد كان السلطان سليمان يطمح لتحقيق أهداف ومصالح اقتصادية، إلى جانب غاياته السياسية والإستراتيجية. وبعد أن استولى الجيش العثماني على قلعة "فالبو"، حاصر مدينة "شيكلوش"، ثم انطلق للسيطرة على مدينة "بيتش" المَجَرية. وعبرت القوات العثمانية نهر "درافا" بواسطة جسر بنوه فوق مياهه، ووصلوا إلى مدينة "بيتش" التي استسلم أهلها من دون قتال. وينحدر من هذه المدينة المؤرخ العثمانيّ الشهير "إبراهيم أفندي" (١٥٧٤ - ١٦٥٠) الذي عُرف بلقب "البيتشيوي (*Peçevî*)" نسبةً إلى المدينة، لكن هذا اللقب حُرّف قليلًا حتى صار "بيتشوليو (*Peçuylu*)" أو "بيتشيوي (*Peçuyî*)". وبعد سيطرة العثمانيين على مدينة "بيتش"، ضغطوا بشكل أكبر على قلعة مدينة "شيكلوش"، حتى سقطت في أيديهم يوم ٨ تموز/يوليو ١٥٤٣م. ودخل السلطان سليمان المدينة بعد الاستيلاء على قلعتها، وأمر بتوزيع الهدايا والعطايا على من أسهم في فتح هذه المدينة. وبعد فتح "شيكلوش"، تقدّم الجيش العثماني نحو "بودا"، ووصل إلى مشارفها يوم ١١ تموز/يوليو. ومن ثم استراح الجيش في المدينة لعدة أيام، وبعدها تقدّمت قافلة عسكرية بقيادة حاكم مدينة "سيليسترا" قوامها ٤٠ مدفعًا كبيرًا و٤٠٠ مدفع صغير نحو شمال نهر الطُونَة. وكانت قوة المدفعية هذه قد أُرسلت من إسطنبول بحرًا، ونُقلت حتى مدينة "بودا" بالسفن عبر مياه نهر الطُونَة. ثم بعد ذلك تحرّك الجيش العثماني من "بودا" حتى وصل إلى مشارف مدينة "إزترجوم (*Esztergom*)".

وكانت مدينة "إزترجوم" -المتاخمة لضفاف نهر الطُونَة- تتمتع بمكانة تاريخية وقدسية كبيرة لدى سكان المَجَر. وكانت تلك المدينة تمتلك العديد من الحصون الداخلية والكنائس الكبيرة، وكان أهلها يلبّون احتياجاتهم من المياه بواسطة السواقي التي بنوها على نهر الطُونَة، نظرًا لارتفاع موقع قلعة المدينة عن مستوى الأرض. وكانت المدينة قد خضعت لفترة من الوقت لسيطرة العثمانيين، ثم استعادها بعد ذلك آل "هابسبورج" من أيديهم. وقد جاءت قلعة هذه المدينة على رأس القلاع التي كان يتعيّن على الدولة العثمانية الاستيلاء عليها لتوفير الأمن لمدينة "بودا". وبدأ حصار مدينة "إزترجوم" مع إنزال المدافع المُرسلة عبر نهر الطُونَة إلى الشاطئ، وتمركزها أمام قلعة المدينة يوم ٢٩ تموز/يوليو. وكانت تدافع عن المدينة قوة عسكرية أغلبها من الجنود الألمان، والإيطاليين، والإسبان. وفي الوقت الذي بدأ فيه حصار الجيش العثماني لمدينة "إزترجوم"، كانت قوة عسكرية عثمانية تحاول السيطرة على القلاع الصغيرة المجاورة للمدينة، وتسعى لتفريق قوات المقاومة. وقد استطاع حاكم مُوهَاجْ "قاسم بَكْ" الاستيلاء على قلعتي "ساز (*Saz*)" و"مانفري (*Manveri*)" من هذه المواقع. كما كُلِّف كلٌّ من وَالِي بودا "محمد"، وحاكم فولجترين "أرسلان"، وحاكم سيجيدين (*Segedin*) "درويش (*Derviş*)" باستهداف المنطقة الواقعة بين مدينتيّ "إزترجوم" و"سيكشفهيرفار". وعندما حاصر السلطان سليمان قلعة "إزترجوم"، عرض على حماتها الاستسلام. لكن هؤلاء المدافعين رفضوا هذا العرض اعتمادًا على القوات الإضافية التي جاء بها القائد الإسباني "سانسيوس كوتا". فبادر العثمانيون بقصف القلعة بالمدافع التي كانت بحوزتهم.

وقد تمكّن المدافعون عن القلعة من تكبيد القوات العثمانية خسائر فادحة بفضل تحصينات المدافع المؤثرة التي كانت تخضع لقيادة قائد القوات الإيطالية "فيتيلّي (*Vitelli*)". لكنهم في النهاية لم يستطيعوا الحيلولة دون اقتراب القوات العثمانية من أسوار القلعة حيث بدأ الجنود المشاة العثمانيون في دخول القلعة من الفتحات التي أحدثتها المدافع في جدرانها، لكن المدافعين عن القلعة نجحوا في صدّ هجوم القوات العثمانية بشقّ الأنفس بمساعدة

قذائف المدافع وطلقات البنادق بشكل كثيف. وقد استشهد في هذا الهجوم "جندي سنان بَكْ" أحد أمراء الأناضول، ومحمد بَكْ الذي كان يقود الأسطول العثماني الذي قصف أسوار قلعة "إزترجوم" بقذائف المدافع من نهر الطُونَة. لكن هذا الفشل لم يثبِّط عزيمة الجيش العثماني، فأمطر القلعة بقذائف مدفعية أشدّ من السابق. وما إن بدأت أسوار القلعة تتداعى، وأرسل المدافعون عنها وفدًا إلى السلطان سليمان ليبلغوه باستعدادهم للاستسلام. وقد قبل السلطان هذا العرض، وسقطت القلعة في أيدي العثمانيين يوم ١٠ آب/أغسطس، وسمحت القيادة العثمانية للمدافعين عنها بالخروج منها بحرية تامة دون قيد. وبهذه الطريقة خضعت مدينة "إزترجوم" -صاحبة المكانة الإستراتيجية الرفيعة- لسيطرة الدولة العثمانية. ولما دخل السلطان سليمان المدينة، أمر بعضًا من الذين كانوا يدافعون عنها في مواجهة الجيش العثماني بتنظيفها، وصلّى الجمعة في الكنيسة الكبيرة الواقعة في وسط المدينة بعد أن أمر بتحويلها إلى مسجد. وتشير إحدى الروايات التاريخية إلى أنه عندما قصفت القوات العثمانية المدينة أثناء حصارها، انقلب الصليب الذهبي الذي كان أعلى برج جرسها حينها قال السلطان سليمان:

"لقد فتحنا المدينة!"

ثم بعد ذلك عُيّن قاض وقائد عسكري للمدينة. ورُمّمت أسوار المدينة وحصونها خلال فترة قصيرة، شريطة توزيع المهام والوظائف على الوزراء. وفي تلك الأثناء، استقبل السلطان سليمان السفير البولندي الذي أعرب عن تهنئة ملك بولندا على هذا الفتح، مما أسعد السلطان كثيرًا. وأمر بإكرام السفير البولندي وإطعامه وإتحافه بالهدايا القيّمة.

وبعد أن فتح الجيش العثماني مدينة "إزترجوم"، توجّه صوب مدينة "سيكشفهيرفار (*Székesfehérvar*)" التي كانت تتمتع هي الأخرى بأهمية كبيرة. وتقع هذه المدينة في منطقة بين مدينة "بودا" وبحيرة "بالاتون" على بعد ٥٨ كيلومترًا جنوب غرب "بودا". وغادر السلطان سليمان مدينة "إزترجوم"،

ووصل إلى مشارف قلعة "تاتا". واستولى عليها دون مقاومة. ثم انطلق الجيش العثماني نحو قلعة مدينة "سيكشفهيرفار"، وكانت هذه القلعة تحوطها أسوار وخنادق عميقة ومنيعة. كما كان المدافعون عن القلعة يمتلكون مدافع من النوع البعيد المدى. وبعد أن بدأ حصار المدينة، عمد الجيش العثماني إلى إحراق مدافع العدو بعيدة المدى، إلا أنه لم يستطع التقدّم أكثر نحو القلعة. ففكّر السلطان سليمان في كيفية الاستيلاء على هذه القلعة المنيعة، فلم يجد بُدًّا من أن يرسل أمير الأناضول إبراهيم بَاشَا إلى مدينة "بودا" لجلب المدافع الكبيرة البعيدة المدى. وفي تلك الأثناء، بادر الوزير الثالث محمد بَاشَا وقائد الجنود الإِنْكِشَارِيَّة إلى التمركز بقواتهم عند جانب من جوانب القلعة، فيما شرع الوزير الرابع "خُسْرَوْ بَاشَا" وأمير الرُّومَلِي أحمد بَاشَا في التمركز عند الجوانب الأخرى من القلعة. وقاموا بوضع المتاريس والضغط على قوات العدو. وفي نهاية المطاف، جاءت المدافع الكبيرة، وأُمطرت القلعة بوابلٍ من القذائف. لكن تلك الفترة شهدت هجومًا فاشلًا أقدم عليه "خُسْرَوْ بَاشَا" في محاولة منه لاقتحام القلعة. أعقب ذلك إقدام قوات المدفعية العثمانية بقصف القلعة بقذائفها بشكل أشدّ وأقوى، حتى أُصيبت أسوار القلعة بتشقّقات وتصدّعات. وقد أصدرت القيادة العسكرية للجيش العثماني قرارًا بشنّ هجوم شامل على القلعة في يوم ٢ أيلول/سبتمبر. وقد قصفت مدافع الجيش العثماني النقاط الثلاث التي ستهجم منها قواته بشكل كثيف، ومن ثم بادر الجنود بالهجوم على تلك النقاط. فاضطر المدافعون عن القلعة إلى الانسحاب إلى داخلها، وأدركوا حينها أنهم لن يستطيعوا الصمود في مواجهة القوات العثمانية، فطلبوا الأمان. فلم يعطهم السلطان سليمان الأمان لأنهم كانوا قبل ذلك يخضعون لحكم الملك "زابوليا"، ثم انضموا إلى صف عدوه "فرديناند" عن رضا وطواعية. لكن مشاعر الرحمة تغلّبت على السلطان بعد ذلك. وتسلم السلطان مفاتيح القلعة يوم ٤ أيلول/سبتمبر ١٥٤٣م. ويروي المؤرخ العثماني "جلال زاده مصطفى شلبي" أن هذه المدينة كانت تضم الكثير من الكنائس والأبنية العتيقة والتماثيل والأضرحة، وأن هذه الأضرحة كان مدفونًا بها بعض ملوك

المَجَـر، إذ كانـت فخمة للغاية ومُزركشـة بأفخم أنواع الزينة. حتى إن السـلطان سـليمان خـرج في جولـة تفقّدية لأحياء المدينة، وشـاهد أضرحـة ملوك المَجَر القدماء. وحصل على عهد الولاء من شعب المدينة.

شعر السلطان سليمان بالاكتفاء بفتح هذه القلاع الهامة، واتخذ قرارًا بوقف العمليات العسكرية مع اقتراب فصل الشتاء، وذلك عقب الاستيلاء على مدينة "سيكشفهيرفار". ومن ثمّ بدأت استعدادات العودة. وقد أعلنت الإدارة العثمانية مدينة "سيكشـفهيرفار" ولاية تابعة لمدينة "بودا"، ومُنحت إدارتها لشـقيق حاكم بودا "يحيى بَاشَا أحمد بَكْ". وقد عُيِّن قاضٍ ومسؤول عسكري بالمدينة، وكُلِّف ٤ آلاف جنـدي، منهـم ألـف من الإنْكِشَـارِيّة، بحماية المدينة واسـتتباب الأمن بهـا. كما أرسـلت الإدارة العثمانية رسـائل النصر إلى كافة الولايـات العثمانية، وملـك فرنسـا، ودوق البندقية. عاد بعدها السـلطان سـليمان إلـى مدينة "بودا"، ثـم وصـل إلى مدينة "بيتروفأردلين" عبر تتبع سـاحل نهر الدانـب، ومنها توجّه صـوب "بَلْغِـرَاد". وقد أمر السـلطان بإرسـال الجنـود إلى الأماكـن المخصصة لقضـاء فصـل الشـتاء، وعاد هو إلى إسـطنبول برفقة جنـوده المكلّفين بحمايته. وبينمـا هـو كذلـك، تلقّى نبأ وفاة ابنه الأميـر "محمد" حاكم إمـارة "صَارُوخَانْ" بولايـة "مَانِيسَـا" (٧ / ٨ شـعبان ٩٥٠هـ / - ٦ تشـرين الثاني/نوفمبر ١٥٤٣م). وقـد نـزل عليه هـذا الخبر كالصاعقة، إذ إنه فقد ابنًا له للمـرة ثانية بينما كان في غـزوة. وأمر بإحضار جثمان الأمير محمد إلى العاصمة إسـطنبول. وصلّى عليه صـلاة الجنـازة في جامـع بايزيد يوم ١٦ تشـرين الثاني/نوفمبر ١٥٤٣م وسـط حشـد كبير من أهالي إسـطنبول. وقد دُفن الأمير محمد بأمر من والده السـلطان فـي المنطقـة التي خُصصت بها غـرف قديمة لجنـود الإنْكِشَـارِيّة، أي الحظيرة المتاخمـة للجامـع المعـروف اليوم باسـم جامـع شـهزاده (الأميـر). وقد كُلِّف المعمـاريّ "سـنان" بإنشـاء ذلـك الجامع الذي حمل اسـم الأميـر محمد. وقد حدّد السـلطان سـليمان تاريخ وفاة ابنه الأمير محمد بقصيدة شعرية ألّفها بنفسه وعنونها بـ"خير الأمراء أميري محمد!". وكانت وفاة الأمير محمد قد هزّت كيان والدته "خُرّم سـلطان" أكثر من السـلطان نفسـه. ذلك لأنها كانت تسـعى لتربيته

وتنشئته بعناية بالغة بصفته المرشح الأقوى لخلافة والده على عرش السلطنة. وأما الآن، فإنها ستوزّع حبها هذا على أبنائها الآخرين وعلى رأسهم "سليم". وربما كانت تفكر في الاستعاضة عن الأمير محمد بأخيه "سليم" كي يخلف أباه في الحكم.



جامع شهزاده الذي خططه المعماري "سِنَانْ" ما بين ١٥٤٣-١٥٤٨م وقال عنه: "إنه عملي في فترة التلمذة المهنية"

لم يخرج السلطان سليمان إلى أي غزوة كبيرة على مدار خمس سنوات منذ عام ١٥٤٣م، وبدأ في تمضية معظم أوقاته في الخروج لجولات الصيد في "أَدِرْنَه". ولقد زاد حبه لعائلته واهتمامه بها عقب وفاة ابنه المؤسفة. وكان ذات مرة قد خرج إلى ولاية "بورصا" وترافقه زوجته "خُرّم" وابنها الصغير "جِيهَانْكِيرْ"، والتقى بابنه الآخر الأمير "سليم" الذي نقله إلى "مَانِيسَا" لتولّي إمارة "صَارُوخَانْ" بعد أن صار أكثر المرشحين لولاية العهد (١٥٤٤م). وربما كان السلطان يفكّر في أن يتولى ابنه "سليم" العرش مكانه، وصار يتجاهل أكبر أبنائه مصطفى تمامًا.

حاول السلطان سليمان على مدار السنوات الخمس التي أمضاها بين إسطنبول وأَدِرْنَه متابعة الأخبار القادمة من الولايات الحدودية ومن الداخل

عن كثب، وكان قد عيّن زوج ابنته "رستم بَاشَا" في منصب الصدر الأعظم، ليؤكّد مرة أخرى الاهتمام الذي أولاه بأسرته. فالآن أقرب مساعديه هو زوج ابنته. وهو ما أدخل السرور والبهجة على قلب "خُرّم سلطان". فعلى أية حال، ظهرت دولة عثمانية تديرها عائلتها. وكان الأمير مصطفى على ما يبدو لن يستطيع هذه المرة إفشال هذه اللعبة الجديدة، وتحويل دفّة الأمور لصالحه.

وبينما كان القصر السلطاني في إسطنبول يشهد كل هذا التطورات، كانت الاشتباكات مع آل "هابسبورج" على الحدود الغربية للدولة العثمانية لا تنقطع برًّا وبحرًا. وكان قائد الأسطول العثماني "بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين بَاشَا" ينفذ عمليات عسكرية واسعة المدى في ظل إستراتيجياته الجديدة التي وضعها، ذلك في الوقت الذي كان الجيش يخرج في غزواته البرّية خلال عامي ١٥٤٢ - ١٥٤٣م على وجه الدقة. حتى إن الأسطول العثماني سعى في تلك الفترة إلى التعاون مع الفرنسيين لتوجيه ضربات بحرية إلى جبهة آل "هابسبورج" الإسبانية. أي بتعبيرٍ آخر، كانت المعارك متواصلة برًّا وبحرًا في وقتٍ متزامن تقريبًا. وكانت أنباء فعّاليات بَرْبَرُوسْ العسكرية في البحار تصل إلى السلطان سليمان دومًا وهو في غزواته وأسفاره البرّية. وفي الواقع، فإن تحالف الأسطول العثماني مع نظيره الفرنسي كان له دور كبير في أن تخرج القوات العثمانية في غزوة بحرية ضد الجناح الإسباني من إمبراطورية آل "هابسهابسبورج"، ذلك لأنه في عام ١٥٤٢م عندما خرج السلطان سليمان إلى غزو المَجَر، كانت الحرب بين الإمبراطور "كَارْل الخامس" والفرنسيين على وشك الاندلاع من جديد. وكان الفرنسيون يحاصرون مدينة "بيربينيا"، لكنهم لم يستطيعوا الصمود أكثر، فاضطروا للانسحاب في نهاية المطاف. وأما الإمبراطور "كَارْل الخامس" فقد وجد الأرضية خصبة لإبرام اتفاقية تحالف مع إنجلترا (شباط/فبراير ١٥٤٣م)، لينجح في وضع الفرنسيين تحت ضغط مرة أخرى. ولهذا السبب لجأ الفرنسيون إلى طلب العون من السلطان سليمان عبر إرسال السفير "بولين" إلى بلاط دولته. وبناءً على ذلك الطلب، تقرّر خروج الأسطول العثماني في عملية عسكرية مشتركة مع نظيره الفرنسي.

وتشير بعض كتب التاريخ العثماني إلى أنه عندما تقدّم السفير الفرنسي بطلب المساعدة من الدولة العثمانية، أعرب أركان البلاط العثماني عن استيائهم من الموقف الفرنسي في السابق. فكان أركان البلاط العثماني على علم بأن فرنسا قد تحالفت مع الدول المسيحية لمواجهة الدولة العثمانية بين الفينة والأخرى في أعقاب حصار فيينا عام ١٥٢٩م على وجه التحديد، كما أنهم كانوا على دراية تامة بأن الفرنسيين كانوا ينكرون تحالفهم مع العثمانيين ويستترون منه أمام الرأي العام في أوروبا في العديد من المناسبات لحماية مصالحهم. وفي حقيقة الأمر، بينما كان الفرنسيون يعترفون بالأولوية لمواقفهم أمام الرأي العام المسيحي، فإنهم لم يؤيّدوا فكرة الإضرار بعلاقتهم مع العثمانيين. وكانوا يدركون أنهم يستطيعون تخفيف الضغط الذي تمارسه إمبراطورية "هابسهابسبورج" عليهم عن طريق اللعب بورقة التعاون مع الدولة العثمانية. ولم يكن هناك أدنى شك يعتري اهتمام السلطان سليمان الخاص بعلاقته بفرنسا. حتى إنه قدّم الدعم المادي لتشكيل الفرنسيين وحدة عسكرية جديدة مع إنجلترا والأمراء البروتستانتيين للتصدّي للإمبراطور "كَارْل الخامس". وكانت مفاوضات التحالف الرسمي بين الدولة العثمانية وفرنسا قد قطعت شوطًا كبيرًا منذ عام ١٥٣٢م. وفي عام ١٥٣٥م وصل السفير الفرنسي "لا فوريس" إلى إسطنبول، وطلب من البلاط العثماني المشاركة بجميع قواته البرية والبحرية في هجوم ضد آل "هابسهابسبورج" العام التالي، كما طلب تزويد ملك فرنسا بدعم مادي بقيمة مليون قطعة ذهبية. ولقد تمخّض عن مفاوضات التحالف هذه التجهيز لعدد من المخططات العسكرية. ويُروى أن عام ١٥٣٦م شهد منح فرنسا أول الامتيازات التي تعترف ببعض حقوقها التجارية. لكن المؤرخين المعاصرين يشيرون إلى أن هذه الامتيازات ظلّت على حالها كمسودة موقوفة التنفيذ، ولم تسر بشكل رسمي حينها.

وكانت الفترة الواقعة بين عامي ١٥٣٧ - ١٥٣٨م شاهدةً على تنفيذ أول المخططات الحربية لمواجهة آل "هابسبورج". ولقد أجرى الجيشان العثماني

والفرنسي عمليات عسكرية مشتركة للمرة الأولى بهذه المناسبة، كما قدّم الأسطول الفرنسي الدعم لهذه العمليات. لكن الأوضاع تغيّرت بشكل مفاجئ عام ١٥٣٨م. فقد أبرمت فرنسا في شهر تموز/يوليو من ذلك العام اتفاقًا مع الإمبراطور "كَارْل الخامس"، لمشاركة في التحالف الصليبي الذي ضمّ عدة أطراف في أوروبا. إلا أن الحرب المندلعة بين فرنسا والإمبراطورية سيتولّد عنها الحاجة إلى مساعدة الدولة العثمانية من جديد.

إن العمليات العسكرية المشتركة بين الأسطولين العثماني والفرنسي في البحر المتوسط ستصب في مصلحة السلطان سليمان في المقام الأول، إذ إنه سيستفيد منها في تهديد وإبطال فعّالية الجناح الإسباني للإمبراطورية أثناء غزواته البرّية في غرب أوروبا. وما إن اتخذت الإدارة العثمانية قرارًا بدعم فرنسا، حتى أرسل المترجم "يونس بَكْ" إلى البندقية -كما هو الحال في المرات السابقة- وطلبت من دوقها التحالف مع فرنسا ضد الإمبراطور "كَارْل الخامس". لكن دوق البندقية آثر التصرّف بترددٍ كبير لعدم رغبته في تفضيل دولة على أخرى من هاتين الدولتين. ومع ذلك، فإن "يونس بَكْ" الذي وصل إلى البندقية في ربيع عام ١٥٤٢م استطاع إمداد الجيوش الفرنسية المتمركزة في مدينة "مارانو" الإيطالية بالغذاء، كما نجح في الحيلولة دون تنازلها عن مواجهة قوات "كَارْل الخامس". حتى إن بعض المصادر تذكر أنه حصل على معلومات حول جيش الإمبراطورية خلال هذه الرحلة. وعليه، فقد أنجز "يونس بَكْ" هذه المهمة الدبلوماسية بنجاح باهر، وستكون هذه المهمة هي الأخيرة له في حياته، إذ ستوافيه المنية بعد ذلك التاريخ بعدّة سنوات، وبالتحديد يوم ٢٢ حزيران/يونيو عام ١٥٥١م. من ناحية أخرى، فقد حمل السفير الفرنسي "بولين" بُشرى إلى الملك "فرانسوا الأول" مفادها أن العثمانيين منحوه وعدًا بمساعدة فرنسا، وأن قائد الأسطول العثماني بَرْبَرُوسْ سيخرج بأسطوله لدعم الأسطول الفرنسي في أقرب فرصة سانحة. ثمّ جاء "بولين" للمرة الثانية إلى إسطنبول، وكان يرافقه في هذه الرحلة سفيرٌ آخر يُدعى "بيليسيه (*Pellicier*)". فاستقبل السلطان سليمان هذين السفيرين اللذين نجحا في الحصول على خطاب

من السلطان يَعد فيه ملك فرنسا بتقديم الدعم لدولته، وذلك بعد أن لعب الصدر الأعظم "رستم بَاشَا" دورًا هامًا في إقناع السلطان بقبول هذا الطلب.

حصار مدينة "نيس (*Nice*)"

بدأ الأسطول العثماني استعداداته فور صدور قرار تقديم العون إلى فرنسا. وقد خاطب السلطان سليمان قائد الأسطول بَرْبَرُوسْ في اجتماع الديوان، وأخبره بتعيينه قائدًا للجيش لمساعدة الفرنسيين والخروج في غزوة إلى إسبانيا. وأبلغه السلطان بأن هذه المهمة صعبة للغاية، إذ إنه سيدخل في معارك بحرية مع كافة الأساطيل التي يقابلها في البحر المتوسط، باستثناء الأسطول الفرنسي، وقال له إنه سيحصل على القوات العسكرية اللازمة لإنجاز هذه المهمة. وخرج بَرْبَرُوسْ إلى البحر على رأس أسطول مكون من ١١٠ قوادس[٨١] و٤ صنادل[٨٢] في ٢٤ من شهر أيار/مايو عام ١٥٤٣م. وكان السفير الفرنسي "بولين" يتواجد في سفينة قائد الأسطول. وقد تزوّد الأسطول العثماني بالمياه والمؤن اللازمة له من مدينة "مودون"، ثم تحرك من مودون وعبر البحر اليوناني، ووصل في النهاية إلى مضيق "ميسينا". وعندما وصل الأسطول إلى سواحل مدينة "ريدجو" الإيطالية، شعر سكانها بالخوف، فصعدوا إلى الجبال. لكن ٦٠ جنديًا كانوا يحمون قلعة المدينة فتحوا النار على الأسطول العثماني، وأردوا بعض الجنود شهداء. فأمر بَرْبَرُوسْ بإنزال المدافع إلى شاطئ المدينة، وأمطر القلعة بوابل من القذائف، حتى سقطت المدينة في أيديهم. وتذكر مصادر التاريخ الغربية أن زوجة حاكم تلك المدينة "جايتانو" وابنته سقطتا أسيرتين في أيدي العثمانيين، وأن ابنته "دونا ماريا" اعتنقت الإسلام وتزوجت بَرْبَرُوسْ، لتنجو عائلتها بذلك من الأسر. ثم وصل أسطول بَرْبَرُوسْ إلى مصب نهر "تيبر" ومنطقة "أوستيا" القريبة من روما، مما أدخل الخوف إلى قلوب مسؤولي روما.

---

(٨١) قادس (ج. قوادس): يُعد القادس نوعًا من السفن المزودة بمجاديف لدفعها حيث نشأت في إقليم البحر المتوسط واستُخدمت في الحرب، والتجارة والقرصنة منذ الألفية الأولى قبل الميلاد. (المترجم)

(٨٢) صندل: قارب مسطح القاع، تم تصميمه أساسًا لنقل البضائع الثقيلة عبر الأنهار والقنوات. (المترجم)

وهرع نبلاء المدينة والقساوسة والنساء والأطفال لترك المدينة، وفرّوا هاربين إلى ما وراء منطقة "ديفولي" الواقعة في وادي "سابين".

وكان السبب الرئيسي الكامن وراء عدم قيام بَرْبَرُوسْ بأي هجوم عسكري على الرغم من اقترابه من روما لهذه الدرجة، هو عدم صدور أوامر من السلطان بمهمة كهذه، وتفضيله التحرّك وفق المخطط الموضوع لهذه الغزوة. حتى إن السفير الفرنسي أمّن الشعب الإيطالي القاطن بالقرب من البحر، وأسهم في إزالة الخوف عن قلوبهم. وبعد أن أمّن السفير الفرنسي الشعب الإيطالي، شوهد قيام بعض الأهالي الذين زال عنهم الخوف والرعب بتزويد سفن الأسطول العثماني بالطعام والشراب.

أخذ بَرْبَرُوسْ على رأس أسطوله في تتبع السواحل الإيطالية حتى وصل إلى مشارف مدينة "مارسيليا" الفرنسية يوم ٢٠ تموز/يوليو عام ١٥٤٣م. وبينما كان الأسطول العثماني يعبر من أمام سواحل مدينة "تولون" حيّاه الأسطول الفرنسي المتواجد بالمدينة عبر شدّ الأعلام، وعندما وصل إلى "مارسيليا" استُقبل بمراسم في غاية الأبهة والعظمة. وقد استقبل الأسطولَ العثماني في "مارسيليا" قائد الأسطول الفرنسي "فرانسوا دو بوربون" الذي كان يشغل في الوقت نفسه منصب دوق "أنجين" على رأس أسطول قوامه ٣٠ سفينة. وتروي بعض المصادر التاريخية التي تتناول تلك الحقبة أن كافة طوائف الشعب الفرنسي توافدت على "مارسيليا" لرؤية القائد البحري التركي الكبير "بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين بَاشَا" الذي حقق شهرة واسعة في ذلك العصر. وبعد أن استقبل الأسطول الفرنسي بَرْبَرُوسْ من خلال رفع الأعلام التركية على السواري وإطلاق بعض قذائف المدفعية، جاء الدوق "دو بوربون" إلى بَرْبَرُوسْ، وأوصل إليه سلام ملك فرنسا. وأما بَرْبَرُوسْ فلم يولِ اهتمامًا على الإطلاق بهذه المراسم البهيجة، وسأل قائد الأسطول الفرنسي "دو بوربون" الذي كان يبلغ من العمر حينها ٢٣ عامًا عن المخططات الواجب تنفيذها في إطار التعاون العسكري بين الدولتين. وقد اعترى بَرْبَرُوسْ غضبٌ كبير عندما علم أن الجانب الفرنسي لم يقم

بالإعدادات اللازمة لتنفيذ هذه الخطط العسكرية، وصبّ غضبه على من كانوا حوله من القادة الفرنسيين، حتى إن قائد الأسطول والسفير الفرنسيين بذلا جهدًا جبّارًا من أجل تهدئته وإذهاب الغضب عنه. وفي واقع الأمر، لم يفكر الفرنسيون في كيفية الاستفادة بشكل مثالي من خبرات بَرْبَرُوسْ، واتخذوا قرارًا بتنفيذ بعض الخطط العام التالي. وما إن أعلن بَرْبَرُوسْ اعتراضه على هذا التخطيط، حتى ذهب السفير الفرنسي إلى الملك "فرانسوا الأول"، وتلقّى منه معلومات حول نيته مهاجمة مدينة "نيس" التابعة لدوق إقليم سافوا "تشارليز" حليف الإمبراطور "كَارْل الخامس"، بدلًا من مهاجمة أراضٍ تابعة للإمبراطور نفسه.

وكان الأسطول الفرنسي في تلك الغزوة يتألف من ٢٢ قادسًا و١٨ سفينة نقل، بالإضافة إلى قوة عسكرية قوامها ٧ آلاف جندي. وقد التحقت هذه القوة بأسطول بَرْبَرُوسْ، وانطلقوا جميعًا صوب سواحل مدينة "نيس". واستولت قوات التحالف العثماني – الفرنسي على ميناء "فيلفرانش"، وأنزلوا جنودهم إلى الشاطئ. وتدفق الجنود عبر التلال، حتى وصلوا إلى قلعة "نيس" وحاصروها. وأرسلت قوات التحالف خطابًا في البداية إلى القلعة تطالب المسؤولين عنها بالاستسلام، إلا أنهم تلقّوا جوابًا بالرفض، فبدأ حصار القلعة على الفور. وكان بَرْبَرُوسْ يتواجد وقتها على جبهة القتال عند الجبل. وبدأت المدافع التي أنزلها من السفن في قصف القلعة، واستطاعت قذائف المدافع تدمير برجين من أبراج القلعة بعد مرور سويعات قليلة. وفي النهاية، استسلمت المدينة بعد هذا الهجوم المكثّف. (٢٠ آب/أغسطس ١٥٤٣م) إلا أن الجنود الذين كانوا يدافعون عن المدينة انسحبوا إلى القلعة الداخلية وواصلوا مقاومتهم بقيادة الفارس المالطيّ "باولو سيميوني" الذي قضى فترة من حياته في الأَسْر قبل ذلك بصحبة بَرْبَرُوسْ. فقد رغب بَرْبَرُوسْ في شنّ هجوم على القلعة الداخلية في أسرع وقت ممكن للحيلولة دون وصول إمدادات إلى المدافعين عنها. لكن هذا الاقتراح لم يلقَ قبولًا من قبل الفرنسيين. فأدرك بَرْبَرُوسْ وقتها أنه لا رجاء من دعم الفرنسيين لمخططاته، فأمر بإنزال ثمانية مدافع كبيرة إلى الشاطئ، وبادر بقصف القلعة الداخلية. وبينما الأمر كذلك، شكا الفرنسيون من نفاد

بـارود بنادقهم، وطلبوا من بَرْبَـرُوسْ تزويدهم بالبارود. وقد أصاب هذا الطلب بَرْبَرُوسْ بالعصبية، وقال لدوق "آنجين" ما مفاده:

"يا لهم من محاربين عظماء! يملأون سـفنهم ببراميل الخمر والشـراب، وينسون براميل البارود اللازم لبنادقهم!".

ومن ثَمّ توجّه إلى السفير الفرنسي "بولين" وسأله ساخرًا:

"هل كنت تمازحني عندما أخبرتني بجاهزيتكم للحرب بشكل شبه كامل عندما كنّا في إسطنبول؟!"

ولم يَكن بَرْبَرُوسْ يستسيغ محاصرة قلعة "نيس" وإقامة معسكر أمامها بكل هذه القوات الضخمة التي كانت تحت قيادته، وأخذ يحادث نفسه لبرهة قائلًا:

"يتعيّن عليّ ألا أحمّل هذا الذنب لأحدٍ غير نفسي. هل أني لم أكن أعلم أن الفرنسـيين كاذبـون ومتلوّنون وكُسـالى؟! لم يكن لـي أن أبرم معهم عهدًا للخروج في غزوة كهذه!".

وإن لـم تكـن هذه الروايات صحيحـة، فإنها تدل على الخـلاف الذي كان ناشبًا بين أسطولي التحالف العثماني والفرنسي إذا جاز التعبير.

ولقـد اسـتطاع دوق "آنجين" كظم غيـظ بَرْبَرُوسْ وتهدئتـه بصعوبة بالغة. وشـهدت تلـك الفتـرة تواتـر أنبـاء عـن إعـداد "أندريا دوريـا" وبعـض القوات المسـاعدة العـدّة، وتوجّههم صـوب مدينة "نيس". لكن هذه القوات المسـاعدة تعرّضـت لعاصفة شـديدة وهي في الطريق، فاضطرت للرسـو في جزيرة "سـن مارجريت". وقد أعلن وَالِي ميلان "ماركي ديل جواستو" أن الإسبان بعثوا خطابًا إلـى قائـد المدافعين عن نيس "سـيميوني" يخبره بانطلاقهم إلـى المدينة لتقديم العون له. واسـتطاع الجنود الأتراك إلقاء القبض على الرسـول الذي كان يحمل ذلـك الخطـاب قبل أن يدخل إلـى قلعة مدينة "نيس". فلمـا وصلت هذه الأنباء إلـى مسـامع بَرْبَـرُوسْ، أمر علـى الفور برفع الحصـار عن القلعة لعـدم رغبته في أن يضـع قواته بين شـقّي رحى هاتين القوتين، وكذلك رفضًا منه أن يضحّي

الجنود الأتراك بأنفسهم ودمائهم في سبيل الفرنسيين الذين كانوا يتصرّفون برعونة كبيرة. وأما السفير "بولين" فقد حاول إقناع بَرْبَرُوسْ بتنفيذ مخطط جديد، وعرض عليه الهجوم على أسطول "دوريا" في البحر بعد أن تعرّض لعاصفة شديدة أدّت إلى وقوع خسائر بين سفنه. لكن بَرْبَرُوسْ لم يُلقِ بالًا لهذا العرض لعلمه مسبقًا بتصرّفات الفرنسيين غير المسؤولة. حتى إنه مازح السفير الفرنسي قائلًا "لا، لن أواصل أكثر من ذلك في هذه المهمة. أخشى أن أنسى المعاملة التي عاملني بها أخي دوريا في بونة وبريفيزا".

قضى بَرْبَرُوسْ ذلك الشتاء في مدينة "تولون". وفي تلك الأثناء، أرسل أسطولًا بقيادة الرئيسيْن "صالح" و"حسين" إلى سواحل إسبانيا. ولقد عادا بالكثير من الغنائم والأسرى من هذه الغزوة. كما عادت القوات التي أرسلها إلى جزيرة "سردينيا" بالعديد من الغنائم. وفيما كان بَرْبَرُوسْ يقضي فصل الشتاء في "تولون"، قرّر الفرنسيون تزويده بمبلغ مالي قدره ٥٠ ألف قطعة ذهبية لاستخدامها في تلبية نفقات الجيش. إلا أن تأخرّهم في دفع هذه المبالغ أسخط بَرْبَرُوسْ كثيرًا. وفي نهاية المطاف، دفع ملك فرنسا "فرانسوا الأول" مبلغًا ماليًّا قدره ٨٠٠ ألف قطعة ذهبية عندما حان وقت رحيل وعودة جيش التحالف. ولقد خرج بَرْبَرُوسْ في رحلة بحرية في شهر أبريل/ نيسان عام ١٥٤٤م. وكانت أكبر مهمة قام بها في ذلك التوقيت هي إنقاذ القائد البحري الشهير "الرئيس تورجوت" من الأسْر، إذ كان هذا الأخير قد وقع أسيرًا في يد "جانيتانو دوريا" ابن أخ "أندريا دوريا" في هجوم قام به، واقتاده إلى مدينة "جنوة" وحبسه في سجن بها. وقد وصل بَرْبَرُوسْ إلى مشارف مدينة "جنوة" التي يقبع فيها "تورجوت" سجينا، وهدّد أهلها بقوله "سلّموني تورجوت، وإلا سأحرق جميع قراكم!" فسلّموه "تورجوت" مقابل فدية قدرها ٣ آلاف قطعة ذهبية بحسب اتفاق أُبرم بينهم، وذلك رغبةً منهم في الوقوف على الحياد وعدم الدخول في الحرب. كما استطاع بَرْبَرُوسْ الحصول على المجادف وبعض المستلزمات الأخرى لسفنه من أهل "جنوة".

إن الأسطول الذي أرسله بَرْبَرُوسْ إلى إسبانيا وإيطاليا وجزيرة "سردينيا" تمكّن من وضع الإمبراطور "كَارْل الخامس" في وضع محرج. وقد وقّع الإمبراطور اتفاقية "كرسبي" مع الملك "فرانسوا الأول" يوم ١٨ أيلول/سبتمبر عام ١٥٤٤م، في أعقاب الغزوة التي قام بها بَرْبَرُوسْ على مدينة "نيس"، والهجمات التي نفّذها أسطوله في إسبانيا وإيطاليا. وفيما كان بَرْبَرُوسْ في طريق عودته إلى إسطنبول، حصل على العديد من الغنائم والأسرى خلال بعض الهجمات التي شنّها على الموانئ التي كانت في طريقه بينما كان يسير بالقرب من الساحل الإيطالي. ولم يجرؤ "أندريا دوريا" في تلك الفترة على الخروج في حملة بحرية ضد بَرْبَرُوسْ. ولم يخرج الأسطول العثماني إلى أي غزوة بحرية بعد العودة من فرنسا لعدة سنوات. واستطاع بَرْبَرُوسْ قضاء آخر أيام حياته في راحة واسترخاء، إلى أن وافته المنية بعد عامين من العودة من فرنسا يوم ١٤ تموز/يوليو عام ١٥٤٦م. ودُفن في ضريح مجاور للمدرسة التي كلّف بإنشائها إلى جانب مرفأ منطقة "بشيكتاش" في إسطنبول. وبإمكاننا التخمين بكل سهولة أن السلطان سليمان حزن حزنًا شديدًا لمفارقة بَرْبَرُوسْ. وقد عزم السلطان على تسليم قيادة الأسطول إلى "سُوكُولّو (*Sokullu*) محمد بَاشَا". وبعد تعيّين هذا الأخير بعد ذلك بفترة وجيزة حاكمًا على منطقة الرُّومَلِي، أُسندت مهمة قيادة الأسطول هذه المرة إلى "سنان بَاشَا" شقيق الصدر الأعظم "رستم بَاشَا". وقد أدّى تعيين أشخاص على غير دراية بأمور البحر على رأس الأسطول العثماني إلى امتعاض عدد من البحّارين الذين عملوا لفترة طويلة مع بَرْبَرُوسْ، بعد أن تُوفي "سنان بَاشَا" عام ١٥٥٤م، عُيّن بعده "بياله بَاشَا" قائدًا للأسطول، مما أذهب ذلك الغضب عن أصحاب بَرْبَرُوسْ القدامى. ذلك لأن "بياله بَاشَا" سيتمكّن من الحفاظ على هيبة الأسطول العثماني في البحر الأبيض المتوسط بمساعدة كلٍ من "الرئيس تورجوت"، و"الرئيس أولوج علي"، و"الرئيس حسن"، و"الرئيس صالح".

إبرام أول معاهدة مع آل "هابسبورج"

بعد عودة السلطان سليمان من غزوة عام ١٥٤٣م، خطّط للاستيلاء على مدينة "فسيجراد" التي تعتبر قلعتها من بين القلاع التي طمح لضمها إلى سيطرته من أجل ضمان أمن مدينة "بودا". ولهذا، عيّن كلًّا من حاكميّ بودا والبُوسْنَة من أجل تحقيق هذا المأرب. وقد تحرّك هذان القائدان في ربيع عام ١٥٤٤م بجيشيهما صوب مدينة "فسيجراد". وكانت هذه المدينة تتمتع بشهرة ذائعة الصيت مثل مدينة "سيكشفهيرفار". كما كان ملوك المَجَر يخبّئون تيجانهم في هذه المدينة أيضًا. وقد خضعت المدينة لاحتلال النمسا عقب وفاة الملك "زابوليا". وتمتلك "فسيجراد" أهمية كبيرة نظرًا لموقعها المطل على نهر الطُونَة، ما جعل منها مركزًا للتحكم بسهولة في طرق النقل بهذه المنطقة. وكان العثمانيون قد استولوا على المدينة أثناء معركة "مُوهَاجْ"، وما لبثوا أن فقدوها بعدها بفترة. وتعتبر المدينة في الوقت نفسه من الأماكن التي طالب السلطان سليمان عدوه اللدود "فرديناند" بتركها ومغادرتها. لقد اتحد حاكم بودا "يحيى بَاشَا زاده محمد بَاشَا" مع كلٍّ من حاكم سيكشفهيرفار "أحمد بَكْ"، وحاكم سيجيدين "درويش بَكْ"، وحاكم بوجيجا "مراد بَكْ"، وحاكم مُوهَاجْ "قاسم بَكْ". ثم قسّم جنود الإِنْكِشَارِيّة المتواجدين في قلاع "بودا"، و"إزترجوم"، و"سيكشفهيرفار" إلى قسمين، ترك قسمًا منهم لحماية القلاع، وكلّف القسم الآخر باللحاق بركب حُكّام تلك المدن التي ذكرناها آنفا. حاصرت تلك القوات مدينة "فسيجراد"، وبادرت بقصف قلعتها وأسوارها بالمدافع التي كانت بحوزتها. وبعد أن صمد المدافعون عن القلعة لعشرة أيام كاملة في وجه هذا الهجوم الضاري، لم يجدوا بدًّا في نهاية المطاف غير الاستسلام للقوات العثمانية. وعقب السيطرة على "فسيجراد"، عبر محمد بَاشَا نهر الطُونَة، وتقدّم ناحية الشرق. ووصل إلى مشارف قلعة "نوفجراد"، واستولى عليها دون مقاومة. ومن ثَمّ تقدّم حتى مدينة "هاتفان"، واستطاع أيضًا بسط نفوذه عليها

دون مقاومة أو قتال، لأن القائمين على الدفاع عن المدينة آثروا حرقها والفرار من أمام القوات العثمانية. ولقد أولى محمد بَاشَا اهتمامًا كبيرًا بترميم قلعة تلك المدينة وتعيين قوات للدفاع عنها، وجعلها مركز ولاية، وعيّن "ولي بَكْ" حاكمًا عليها. أعقب ذلك استيلاؤه على بعض المدن مثل "دومبافار"، و"دوبريكوز"، و"شيمونترينا"، و"أوزارا". وبينما كان محمد بَاشَا يحاصر مدينة "شيمونترينا"، جاءه أمرٌ بإرسال مساعدات إلى "عُلَمَا بَاشَا" الذي كان يغزو بعض المناطق في البُوسْنَة وكرواتيا، فأرسل إليه بعضًا من قواته. وكان "عُلَمَا بَاشَا" منشغلًا في ذلك التوقيت بحصار قلعة مدينة "فليكا" في سلوفيينا، إذ أدرك أن قواته غير كافية لفتح هذه المدينة، فأبلغ السلطان سليمان بذلك طالبًا منه قوات إضافية. وعليه، فقد أصدر السلطان تعليمات إلى محمد بَاشَا بإرسال بعض قواته إلى "عُلَمَا بَاشَا" لمساندته في فتوحاته.

وبعد أن نجح "عُلَمَا بَاشَا" في الاستيلاء على مدينة "فليكا"، تمكّن من السيطرة على قلعة "مونوسلو" الواقعة بالقرب من مدينة "إيفونتيشا" في كرواتيا. ثم سار بجيشه حتى وصل إلى مدينة "ساجوريا" المتاخمة لمدينة "فأردلين"، وألحق هزيمة بقوة مختلطة من كرواتيا وولايتيّ "كريتين" و"ستيريا" النمساويتيْن. وعقب تلك النجاحات التي حقّقها "عُلَمَا بَاشَا" وحاكم مُوهَاجْ "مالكوتش بَكْ"، انسحبا إلى مدينتي "دوبيتشا" و"بنيالوكا". ونتيجة لذلك، فقد شهدت إمارة "بودا" توسّعات كبيرة بفضل هذه الغزوات التي وقعت عام ١٥٤٤م. ووصل عدد المقاطعات بها بعد هذه الفتوحات إلى ١٢ مقاطعة. وقد شعر "فرديناند" بربكة وحنق شديدين جرّاء هذه التحرّكات العسكرية التي أقدمت عليها الجيوش العثمانية وحُكّام إماراتها الحدودية في عمق القارة الأوروبية. وعقب أن استولى العثمانيون على عدد من القلاع التي كانت تخضع لسيطرته واحدةً تلو الأخرى، رأى "فرديناند" من المناسب الرجوع إلى السلطان سليمان للتفاوض معه. وتفاوض في البداية مع "يحيى بَاشَا زاده محمد بَاشَا"، ونجح في عقْد اتفاق هدنة معه لمدة شهر في حزيران/ يونيو عام ١٥٤٤م. كما أرسل في تلك الأثناء وفدًا من السفراء إلى العاصمة

إسطنبول. وكان ذلك الوفد مكونا من "هيرونيموس أدورنو" وكاتبه ذي الأصول الإيطالية "جان ماري مالفيزي". لكن سفير النمسا وافته المنية على حين غِرّة قبل أن يلتقي السلطان سليمان في "أدِرْنَه"، وذلك بحسب ما تظهره رسالة كان قد أرسلها السلطان حول هذا الصدد. وقد كتب هذه الرسالة الكاتب "بيرتيمو" بتاريخ ٢٣ ذي الحجة ٩٥١هـ - ٨ أيار/مايو ١٥٤٤م، إذ جاء فيها أن السفير النمساوي وافته المنية، وأن السلطان لم يفهم ما المطلوب بالتحديد من الرجل ومن الخطاب الذي كان بجوزته. ثم استطرد السلطان كلامه في تلك الرسالة بقوله "... مهما كان غرضك من إرسال رجالك إليّ، فإن عزّة دولتي وبلاطي واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار منذ زمان الآباء والأجداد. وأنا لا أمانع في وفود أي رسول أو سفير سواء من أجل الصلح والصداقة أو من أجل الحرب والعداوة..." ولقد طلب السلطان سليمان في هذه الرسالة من "فرديناند" أيضاح مطالبه بدقة، وأشعره أنه يميل إلى إبرام اتفاق سلام معه(٨٣). وعندها أرسل "فرديناند" وفدًا آخر من السفراء، إذ كان يترأس هذا الوفد قانونيّ يُدعى "نيكولاس سيكو". ولقد بعث الإمبراطور "كارل الخامس" رسولًا هولنديًا يُدعى "فيلتفيك" إلى جانب السفير النمساوي ليحضر جلسات المفاوضات مع السلطان العثماني. وكان العرض الذي كُلِّف السفير "سيكو" بعرضه على البلاط العثماني عبارة عن تقديم هدايا مالية سنوية إلى السلطان قدرها ١٠ آلاف قطعة ذهبية، و٣ آلاف قطعة ذهبية أخرى إلى الصدر الأعظم، من أجل المحافظة على حدود دولة "فرديناند".

وفي الوقت الذي أبلغ فيه السلطان سليمان السفير الفرنسي "دي أرامون" بأن يخبر ملك فرنسا لدى عودته إلى بلاده بأن صداقته مع الدولة العثمانية محفوظة(٨٤)، لم يكن السلطان يفكّر في الدخول في حرب ضد آل "هابسبورج" نظرًا لظهور بوادر احتمال نشوب حرب مع إيران على الجبهة الشرقية. وكان ملك فرنسا قد أبرم اتفاق "كرسبي" مع السلطان سليمان (١٨ أيلول/سبتمبر ١٥٤٤م).

---

(٨٣) أنظر: أرشيف متحف قصر "طُوبْ قَابِي" رقم: E.12321, 374

(٨٤) أنظر: من أرشيف متحف قصر "طُوبْ قَابِي"رقم: E.12321, 226)

وللسبب ذاته كان ملك فرنسا يسعى جاهدًا لتولّي دور الوسيط للإصلاح بين السلطان سليمان والإمبراطور "كارل الخامس". حتى إنه بعث رسولًا يُدعى "جيان دي مونتلوك" إلى إسطنبول في مهمة استثنائية. وكان هذا الرسول سيعمل جنبًا إلى جنب مع مبعوث الإمبراطور "كارل الخامس". إلا أن هذا الأخير لم يكن يثق في الملك "فرانسوا الأول" على الإطلاق. ولقد وصل هذان المبعوثان إلى إسطنبول يوم ٧ أيلول/سبتمبر ١٥٤٥م. وبعد مفاوضات مع الجانب العثماني، اتفق الطرفان على قبول مقترح النمسا بعقْد الهدنة، ووقعا على ذلك اتفاقا بالهدنة لمدة ١٨ شهرًا في "أَدِرْنَه" يوم ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر من العام ذاته. وعاد هذان المبعوثان إلى بلديهما بعد إبرام هذا الاتفاق مع العثمانيين. إلا أن الهولندي "فيلتفيك" سفير الإمبراطور جاء إلى إسطنبول مرة أخرى في نهاية صيف عام ١٥٤٦م. وقد أخبره وزراء الديوان العثماني بضرورة ضمّ الملك "فرنسوا الأول" إلى أي اتفاق سلام يُبرم بين الطرفين في المستقبل من أجل أن يكتسب صفة المتانة، ويستند على أرضية صلبة. وما إن وصلت هذه الأنباء إلى ملك فرنسا، حتى أرسل رسولًا يُدعى "كاديجناك" إلى إسطنبول وبحوزته رسالة مشفَّرة من أجل تأخير هذه المفاوضات فورًا، ثم بعدها مباشرة بعث سفيره الآخر "دي أرامون" على رأس وفد حاشد للغرض ذاته. ذلك لأن آمال ملك فرنسا التي عقدها على اتفاق "كرسبي" مع العثمانيين كانت قد تبخّرت، فهو لم يكن يرغب من الآن فصاعدًا في إبرام اتفاقية صلح بين السلطان سليمان والإمبراطور "كارل الخامس". إلا أن وفاة الملك "فرانسوا الأول" في ذلك التوقيت (٣١ آذار/مارس ١٥٤٥م) وضع الوفد الفرنسي في موقف لا يُحسد عليه. فأُصيب السفراء الفرنسيون بترددٍ كبير في اتخاذ القرار، واضطر المبعوث "دي أرامون" للانتظار حتى تلقّي تعليمات من الملك الجديد. وقد اتخذ الملك الجديد "هنري الثاني" قرارًا باقتفاء أثر والده في سياسته تجاه الشرق، مما دفع السفير "دي أرامون" في محاولة منه لمراوغة السلطان سليمان بعروض جذّابة. وأما "فيلتفيك" سفير الإمبراطور "كَارْل الخامس" فكتب في تقريره أن السفير الفرنسي طلب من السلطان سليمان احتلال المناطق

المتبقية في المَجَر، وإرسال الأسطول العثماني من جديد إلى سواحل إفريقيا. لكن السلطان وديوان دولته لم يمتنّا من تصرفات الفرنسيين، ولم يوليا اهتمامًا بمطالبهم. وكان السلطان يتابع عن كثب ترسيخ دعائم السلام والاستقرار في محيط حوض نهر الطُونَة، واستباب الأمن في الوقت نفسه في البحر الأبيض المتوسط. ولهذا السبب قرّر عقْد اتفاقية صلح مع أرشيدوق النمسا والإمبراطور "كَارْل الخامس".

وكان هناك شخص آخر لا يرغب في إبرام اتفاق سلام بين العثمانيين وآل "هابسبورج" وهو السفير الفرنسي "دي أرامون". وهذا الشخص هو "كريستوف روجندروف" قائد كتيبة الإمبراطور الخاصة، وهو في الوقت نفسه نجل الجنرال "روجندروف" الذي حاصر مدينة "بودا". فقد لجأ هذا الشخص إلى السلطان، وحرّضه على إعلان الحرب على سيّده السابق. حيث واعد السلطان بأنه إن فعل ذلك سيمنحه قلاعه وقصوره التي في النمسا، وأنه سيساعد جيشه على الاستيلاء على فيينا. إلا أن تصرفاته غير المسؤولة أفضت في نهاية المطاف إلى رفض عرضه كما حدث مع السفير الفرنسي"دي أرامون". وأما "فيلتفيك" سفير الإمبراطور فوصل إلى "أَدِرْنَه" عقب وصول السلطان لها، واستقبله السلطان رسميًا يوم ١٤ كانون الثاني/يناير عام ١٥٤٦م. وقد قدّم السفير الهولندي خطاب اعتماده وبعض الهدايا الأخرى ومذكّرة تتضمن مهامه وصلاحياته. وأما السلطان سليمان فقد أبلغه بأنه سيسعى لحل كافة المشاكل القائمة بين الطرفين إن كان قد جاء بعرض مناسب من قبل الإمبراطور. وبعد مفاوضات استمرت بين الجانبين على مدار عدّة أشهر، أبرما اتفاق هدنة لمدة ٥ سنوات يصب في مصلحة العثمانيين في شهر ربيع الآخر ٩٥٤هـ (حزيران/يونيو ١٥٤٧م). وقد أُدخل البابا وفرنسا والبندقية كذلك في هذا الاتفاق. ونصّ الاتفاق على الإبقاء على المناطق التي استولى عليها العثمانيون في المَجَر تحت إدارتهم، وأما المناطق الأخرى في مملكة المَجَر التي لم يفتحها ومازالت تخضع لسيطرة "فرديناند" فسيدفع عنها خراجًا سنويًا إلى الدولة العثمانية بقيمة ٣٠ ألف قطعة ذهبية. ويأتي في نص هذا الاتفاق ما يلي:

- "... إن ولاية المَجَر فُتحت بسيوفنا.
- وإن قلاع تلك الولاية وحصونها تخضع لسيطرة جنودي وأمرائي، إذ زوّدناها بالجنود والتجهيزات اللازمة للمحافظة عليها.
- كما أن كافة القرى التابعة لهذه القلاع وربوعها وحقولها وبساتينها ورعاياها وحدودها تخضع لأهل الإسلام.
- ويتعهّد فرديناند بدفع ٣٠ ألف قطعة ذهبية سنويًا إلى خزينة الدولة العثمانية في مقابل عدم خضوع رعايا بعض القلاع والحصون في المَجَر لأهل الإسلام..."

ويشير هذا الاتفاق إلى "فرديناند" كالتالي:

- "... فرديناند ملك الرومان ورعاياهم.."
- وهو ما يدل على عدم الاعتراف به ملكًا على المَجَر. كما جاء وصف الإمبراطور "كَارْل الخامس" كما يلي: "... كَارْل ملك ولاية إسبانيا وشقيق فرديناند..."
- وهو أيضًا يشير إلى عدم اعتراف السلطان بإمبراطوريته.

وقد صادق "كَارْل الخامس" و"فرديناند" على هذه المعاهدة في مدينة "آوجسبورج" بتاريخ ١ آب/أغسطس ١٥٤٧م.

وبينما كانت الدولة العثمانية توقّع هذه المعاهدة، أتتها بعض الأنباء من اليمن. وكان السلطان سليمان يولي اهتمامًا كبيرًا بتلك المنطقة منذ غزوة "سليمان بَاشَا الخادم" إلى الهند. كما أن السلطان على ما يبدو كان قد أخضع اليمن لسيطرته، إذ كانت اليمن تتمتع بأهمية كبرى لحماية الأراضي المقدسة والدفاع عنها. وقد بدأ العثمانيون في توسيع رقعة نفوذهم في اليمن بالسيطرة على مدينتي "زبيد" و"عدن" اللتين تعتبران من أهم المدن اليمنية. وتولّى إمارة تلك المنطقة "مصطفى بَكْ" ابن "بيقلي محمد بَاشَا"، ثم شخص آخر يُدعى كذلك "مصطفى بَكْ". وقد سعى "مصطفى بَكْ" في بسط نفوذه على المناطق

المحيطة بمدينة "تعز"، إلا أنه فشل في ذلك. وبعد أن تولّى مكانه "أويس بَاشَا"، خضعت "تعز" للسيطرة العثمانية. ويروي المؤرخ العثماني "علي" أن "أويس بَاشَا" هو ابن السلطان سليم الأول من إحدى جواريه، حيث أُخفي ميلاده عنه. وقد استغلّ الخلاف الناشب بين أفراد الأسرة الزيدية في اليمن، واستولى على "تعز" بحجة تقديم العون إلى "الأمير مختار" (١٥٤٥م). إلا أن "أويس بَاشَا" قُتل بعد السيطرة على "تعز" بفترة قصيرة إثر نشوب ثورة قام بها السكان المحليون بتحريض من رجل عسكري يُدعى "بهلوان حسن" رغب في بسط نفوذه على إدارة المدينة. وبعد مقتل "أويس بَاشَا" انتقل حكم إمارة اليمن إلى فرهاد بَاشَا. ولقد قام هذا الأخير بقمع الثورة المندلعة في "عدن"، واستطاع ترسيخ دعائم الاستقرار في المناطق الجبلية (الجبل) والمنبسطة (تهامة) في اليمن. وفي تلك الأثناء وفد إلى اليمن قائد عثماني يُدعى "أوزدمير بَاشَا"، ونجح في الاستيلاء على "صنعاء" (١٥٤٧م). وكان يشغل في ذلك الوقت منصب حاكم مقاطعة، وارتقى لمنصب حاكم اليمن بعد استدعاء فرهاد بَاشَا إلى إسطنبول. وإن كانت بعض المصادر التاريخية تخبرنا بتولّي "أوزدمير بَاشَا" إدارة ولاية اليمن بصفة الوكيل، لكن سجلات إدارة الدولة العثمانية لا تؤكد هذه المعلومات. وكان "أوزدمير بَاشَا" من مماليك مصر الشراكسة. وقد دخل في خدمة العثمانيين في وقت مبكر من حياته بعدما بسطت الدولة العثمانية سيطرتها على مصر. ونجح في جذب انتباه السلطان سليمان، حتى إن المؤرخ العثماني "علي" ينقل لنا حكاية في هذا الشأن، فيقول:

> "بينما كان المتطوعون من الجنود في غزوة الهند يصعدون إلى السفينة، تلقّى سليمان بَاشَا طلبًا من أوزدمير الذي كان فارسًا بارعًا قال فيه "أنا أيضًا أرغب في المشاركة في هذه الغزوة. لكني لا أُريد أن تُخلّوا بيني وبين حصاني قط." فامتنّ سليمان بَاشَا كثيرًا من هذا الطلب، وسمح له باصطحاب جواده معه على متن السفينة، على الرغم من أنه لم يكن يسمح لأحد بهذا".

ويُفهم من هذه القصة أن "أُوزْدَمِيرْ" استطاع كسب رضا سليمان بَاشَا بفضل الأعمال التي قام بها خلال تلك الغزوة. وما إن عاد منتصرًا من غزوة الهند، حتى عيّنه سليمان بَاشَا قائدًا للجنود الإِنْكِشَارِيّة، ثم حاكمًا على إحدى المقاطعات. ثم نجح بعد ذلك بفترة قصيرة في الاستيلاء على بعض القلاع الواقعة في جنوب مصر والقريبة من سواحل البحر الأحمر مثل "إبريم"، و"درّ"، و"ساي". كما أظهر كفاءته كذلك في إدارة اليمن. وفيما كان يحكم إحدى المقاطعات في اليمن، أسهمت عملية سيطرته على "صنعاء" في إذاعة صيته وشهرته. ولقد تمكّن بعد ذلك بفترة وجيزة من القضاء على "بلهوان حسن" الذي قتل "أويس بَاشَا". وقد حصل على لقب البَاشَاوية تكريمًا لتلك النجاحات التي حققها. وكما سنرى لاحقًا، سيتمكّن "أُوزْدَمِيرْ بَاشَا" من صنع شهرة واسعة لنفسه في اليمن والحبشة.